

كتاب
الدلائل والاعتبار
على الخلق والتدبير

تأليف
الإمام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
المنوف سنة ٢٥٥ هـ

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

١٩٨٨ - ١٩٨٧

بيروت - لبنان

طبعة جديدة

مكتبة الكليات الأزهرية

القاهرة - ص. ب. ٦٧ الأزهر (١١٦٧٥)

٩ شارع الصناديق - الأزهر

هاتف (٩٣١٢٩٦)

دار الفتاوى الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - شارع - دار الفتاوى - هاتف: ٥١٩ - ٥١٠ - ص. ب. ٣٥٩٢٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصل الله على محمد وآله وعمل جميع أنبيائه

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إن ناساً حين جهلوا الأسباب والمعالي وقصروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها عرجوا إلى الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الأشياء وزعموا أن كونها بأهمال لا صنعة فيه ولا تقدير فكلموا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أنف بناء وفرشت أحسن فرش وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والمأرب ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير فجعلوا يسمعون فيها عجوبة أبصارهم فلا يسمرون هيئة الدار وما أعد فيها وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع موضعه وأعد لشأنه وهو جاهل بالمعنى فيه فتذمر ونسخط وذم الدار وباتئنها.

فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من الخلقة وأنهم لما غيبت أنصاتهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء صاروا يجهلون في هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه في إنقاذ خلقتهم وصواب هيئته وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه والأرب فيه فيسرع إلى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والأحالة كالذي أقدمت عليه وجاهرته به الماتية الكفرة وأشباههم من أهل الضلال.

فحق على من أنعم الله عليه بمعرفته ووقفه لتأمل هذه الخلقة والوقوف على ما في خلقها من لطف التدبير وصواب التقدير بالدلائل القائمة فيها أن لا يقصر في إظهار ما بلغه علمه من ذلك. بل يجهد في نشره وإذاعته وإبراده على السامع والأذهان لتفوق دواعي الإيمان ونخب مكيدة الشيطان في تضليل البصم محتسباً للثواب في ذلك وثاقاً بعون الله تعالى وتأيدته بإياه.

قد تكفلنا جميع ما وافقنا عليه من العبر والشواهد على خلق هذا العالم وتأليفه وصواب التدبير فيه وشرح الأسباب والمعاني في ذلك بمبلغ علمنا في كتابنا وتوخينا إيضاح القول فيه وتنويره والإيجاز فيها شرحنا ليسهل فهمه ويقرب مأخذه على الناظر فيه ورجونا أن يكون في ذلك شفاء للناكر المرتاب وزيادة في يقين الموفق وبالله التوفيق. فأقول العبر بيضة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه. فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وجدته كالكيت المبني المعد فيه جميع عتاده. السماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالسطح والنجوم منصودة كالصابيح والجواهر مخزونة في معادنها كالذخائر وكل شيء منها لشأنه وما يراد به. والانسكان كالمالك البيت المخول لما فيه وخضروب النبات مهيلة لأقربه وصنوف الحيوانات مصرفة في مصالحه ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام. وإن الخالق له واحد هو الذي للغة وتنظم بعضه إلى بعض وذلك مما قال فيه الأولون فأحسنوا القول ولكننا نصرف إلى فن آخر من دقائق الخلقة فبين عما فيه من الصواب والحكمة مع النظام والملائمة وفي ذلك توبيخ للقائلين بالإهمال والقائلين بأصلين متضادين^(١) لأن الإهمال لا يأتي بالصواب والتضاد لا يأتي بالتضامير (فكر في لون هذه السماء) وما فيها من صواب التدبير فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها حتى أن من صفات الأطباء لمن أصابه شيء أضر بعصره إدمان النظر إلى الخضرة ما قرب منها إلى السواد. وقد وصف الخدائق منهم لمن كل بصره الإطلاع في إجابة خطراء مملوءة ماء.

فانظر كيف جعل هذا الأديم أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد لتستك الأبصار الثقيلة عليه فلا يتمكن فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذي أدركه الناس بعد التفكير والتجارب يوجد مفرغاً منه في الخلقة.

(فكر في طلوع الشمس وغروبها) لإقامة دولتي النهار والليل فلولاً طلوعها

(١) الأصلان المتضادان هما المذكر والأنثى والبارد والبارد أو الحركة والسكون أو البسطة والبارد أو العلم واللوح أو خريطة الأمل والأسفل أو عدم العلم من هاتين الأصلين.

البطل لمر العالم كله فكيف كان الناس يسعون في حوائجهم ومعايشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بلذة العيش مع فقدهم للذة النور وروحه . فالأرب في طلوعها قاهر مستغن بظهوره عن الأظباب فيه . ولكن تأمل المتقعة في غروبها فإنه لولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدو والراحة أبدانهم وجرم حواسهم وإنبعاث القوة الهاضمة لمضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء كالذي تصف كتب الطب من ذلك . ثم كان الحرص سيحملهم إلى مداومة العمل ومطاولته على ما تعظم نكايته في أبدانهم فإن كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل بظلمته عليهم لما هدؤوا ولا أقروا حرصاً على الكسب والجمع ثم كانت الأرض متحمي بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت بتدبير الله تطلع وقتاً وتغيب وقتاً بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت ملياً ليفضوا حوائجهم ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤوا ويفروا فصار الظلمة والنور على تضادهما متعاونين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه .

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما في ذلك من المصلحة ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات فتولد فيه مواد الثمار ويستكشف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتد أبدان الحيوان وتقوى الأفعال الطبيعية . وفي الربيع تتحرك الطبايع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيطلع النبات وينور الشجر ويصح الحيوان للسفل .

وفي الصيف يمتد الهواء فتتضح الثمار وتحلل فضول الأبدان ويحف وجه الأرض فيتهيأ للبناء والاعتمال . وفي الخريف يصفو الهواء فترفع الأمراض وتصح الأبدان ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الأعمال الطويلة إلى مصالح أخرى لو نقصي ذكرها طال الكلام فيها .

(تكرر في تظل الشمس) في هذه البروج لإقامة دور السنة وما في ذلك من التدبير فهذا الدور هو الذي يضم الأزمنة الأربعة من الشتاء والربيع والصيف والخريف ويستوفى بها على التمام لأنه في هذا المقدار من دوران الشمس تدرك

الغلات والثمار وتنتهي إلى غاياتها من النضج والصلاح ثم يعود فيستأنف النشوء والنمو. فما أحسن ما قاله الأولون الزمان مقدار الحركة ألا ترى أن السنة مقدار سير الشمس من الحمل إلى الحمل فبالسنة وأجزائها يكال الزمان وتوزن الأوقات من لدن خلق الله العالم إلى كل وقت وعصر وبها يحسب الناس الأعمار والأوقات المؤقتة للديون والأجارات والمعاملات وغير ذلك من أمورهم ويسير الشمس تكمل السنة ويقوم حساب الزمان على الصحة.

[فأما مسير القمر] ففيه دلالة واضحة جليلة تستعمله العامة في معرفة الشهور ولا يقوم عليه حساب السنة لأن دوره لا يستوي في الأزمنة الأربعة ونشوء الثمار ونصرمها ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنوها وصار الشهر من شهور القمر ينتقل فيكون مرة في الشتاء ومرة في الصيف.

(تأمل) شروق الشمس على العالم كيف دبر أن يكون لها ما لو كانت تبرز في موضع من السماء فتلق فيه لا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجبال لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها فصارت بتدبير الله تطلع أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من المغرب ثم لا تزال تدور وتخشي جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فلا يبقی موضع من المواضع إلا أخذ بقسط من الإزب فيها.

(فكر في مقادير الليل والنهار) كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق فصار منتهي كل واحد منها إذا امتد خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك أرأيت لو كان النهار مقدار مائة ساعة أو مائتين ألم يكن في ذلك بوار ما على الأرض من حيوان أو نبات. أما الحيوان فكان لا يبدأ ولا يفر طول هذه المدة من العمل ولا يهائم كانت تمسك عن الرعي لو دام لها ضوء النهار ولا الإنسان كان يفر عن العمل والحركة فكان ذلك يهلكها أجمع ويؤديها إلى التلف.

وأما النبات فكان ينوم عليه حر النهار ووهج الشمس حتى يحترق ويحرف وكذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة والتصرف وطلب المعاش حتى تموت جوعاً ولحمه الحرارة الطبيعية من النبات حتى

بعض ويفسد كالذي نراه يحدث على النبات إذا كان في موضع لا تقع عليه الشمس.

(فكر في إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والاربع في ذلك فإنه مع الحاجة إلى الظلمة ونهوض الحيوان وسرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون في الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن فيه شيء من العمل لأنه ربما احتاج الناس إلى العمل لضيء الوقت عليهم في بعض الأعمال أو لشدة الحر وإفراطه بالنهار فيعمل في ضوء القمر أعمالاً شتى كحراث الأرض وضرب اللبن وقطع الخشب وما أشبه ذلك فجعل ضوء القمر بالليل معونة للناس على هذه الأعمال إذا احتاجوا إلى ذلك وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضوائها لكيلا يتسبب الناس في العمل بالليل فيه انبساطهم بالنهار ويستمتعوا من الهدوء والفرار فينبههم ذلك وجعل في الكواكب جزءاً يسيراً من الضوء ليسد مسداً إذا لم يكن قمر ويمكن فيه بعض الحركة إذا حدثت ضرورة كما قد يحدث على المرء من الحوادث التي يحتاج معها إلى النجاة والسمي في جوف الليل المظلم فإن لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع المرء أن يزول عن مكانه . فتأمل لطف الحكمة في هذا التدبير حيث جعلت للظلمة دولة ومدة للحاجة إليها وجعل خلالها شيء من النور للمأرب التي وصفنا ثم في النجوم مأرب أخرى فإن فيها علامات ودلالات على أوقات كثيرة من الأعمال كالزراعة والغراسة والسير في البر والبحر وأشياء مما تحدث في الأزمنة من الرياح والحر والبرد وبهذا يهتدي الساري في ظلمة الليل ويقطع الغفار الوحشة واللجج المائلة مع ما في ترددها في هذه السياء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة وفي تصريف القمر خاصة في مهلة وهائلة وزيادته ونقصانه وكسوفه من التنبيه على قدرة خالقها المصروف لها هذا التصريف لصلاح العالم.

وعا يندل عليه الغياس أن هذه المصاييح نسير أسرع السير وأحقه وذلك أنها تدور في كل يوم وليلة دوراً تاماً حتى ترجع إلى مراجعها فتطلع منها فلولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في مقدار أربعة وعشرين ساعة. أفأرأيت لو

كانت الشمس والنجوم بالقرب منا حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنة ما هي عليه ألم تكن تشخطف الأبصار بوجهها وشعاعها كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا نوالت واضطربت في الجو وكذلك أيضاً لو أن ناساً كانوا في قبة مكدلة بمصاييح تدور حولهم دوراناً حينئذ طارت أبصارهم حتى يفرقوا بوجههم فانظر كيف قدر أن يكون سيرها في البعد البعيد لكيلا تضر الأبصار وينكأ فيها النور وبأسرع السرعة لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة من سيرها.

(فكر في هذه النجوم) التي تظهر في بعض السنة وتختبئ في بعضها كمثل الثريا والجوزاء والشعري فإنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد وتختبئ وقتاً واحداً لم يكن لكل واحد منها على حياته دلالات يعرفها الناس ويبتدون بها لبعض أمورهم كمعرفتهم الآن بما يكون في طلوع الثريا والجوزاء إذا طلعت واحتجابها إذا احتجبت. فصار ظهور كل واحد منها واحتجابها في وقت غير وقت الآخر ليستقم الناس بما يدل عليه كل واحد منها على حدة، فكما جعلت الثريا واشباهها تظهر حيناً وتختبئ حيناً لضروب من المصلحة كذلك جعلت بنات نعش ظاهرة ولا تغيب لضرب آخر من المصلحة فإنها بمنزلة الإعلام التي يجتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر معاً وذلك أنها لا تغيب ولا تناري أصلاً فهم ينظرون إليها متى أرادوا ويبتدون بها إلى حيث شاءوا وصار الأمران جميعاً على اختلافهما من جهتين نحو الأرب والمصلحة.

(فكر في النجوم) واختلاف سيرها بفرقة منها لا تديم مراكزها من الفلك ولا تسير إلا سيراً ضعيفاً مجتمعة. وفرقة مطلقة تنتقل في البروج وتفرق في سيرها فكل واحد منها يسير يسيرين مختلفين أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب وآخر خاص لنفسه مع المشرق، وقد شبه الأولون هذه المطلقة بشملة تدب على رحي والرحا تدور ذات اليمين والشملة تدور ذات الشمال فإن الشملة في تلك الحال تتحرك حركتين مختلفتين إحداهما بنفسها متوجهة أمامها والآخرى مستكثرة مع الرحي تجتديها إلى خلفها فليسأل الزاعمون أن النجوم صارت على ما هي عليه بالإهمال ومن غير عمد ما منعها أن تكون كلها راتية أو تكون كلها منتقلة فإن

الإهمال معنى واحد فكيف صار بحركتين مختلفتين على تقدير ووزن لهذا بيان أن
مسير الفريفيين على ما يسيران عليه يعتمد وتدير وليس بإهمال كما تزعم المظلة .
فإن قلت ولما صار بعض النجوم راتياً وبعضها متقللاً قلنا إنها لو كانت كلها راتية
لبطلت الدلالات التي تكون من تغل المتقلة منها ومصيرها في كل واحد من
البروج زماناً محدوداً كما قد يستدل على أشياء مما يحدث في العالم بتقل الشمس
والقمر والنجوم في منازلها ولو كانت كلها متقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا
رسم يقاس عليه لأنه إذا يقاس مسار المتقلة بتقلها في البروج الراتية كما يقاس
سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها .

وجملة القول أنها لو كانت بحالة واحدة لأحتل نظامها وبطلت المأرب فيها
ولساخ لقاتل أن يقول أن كينونها على حال واحدة يوجب عليها الإهمال من الجهة
التي وصلنا . ففي اختلاف مسيرها وتصرفها وما في ذلك من الإرب والمصلحة أبين
دليل على العمد والتدير فيها .

(فكر) لم صار هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه يدور على العالم
هذا الدوران الدائم بهذا التقدير والوزن إلا لما في اختلاف النهار والليل وهذه
الأزمان الأربعة من السنة على الأرض وما عليها من أصناف الحيوان والنبات من
ضرور المصلحة كالذي بينا ولخصنا آنفاً وهل يخفى على ذي لب أن هذا تقدير
مقدر لصواب وحكمة من مقدر حكيم .

فإن قلت أن هذا شيء أتفق أن يكون هكذا فما يمنعك أن تقول هذا في
دولاب تراه يدور لسقي حديقة فيها شجر ونبات فترى كل شيء من آله مقدر
بعضها تلقاء بعض على ما فيه صلاح تلك الحديقة وما فيها وماذا كنت تثبت هذا
القول لو قلته وما ترى الناس كانوا قائلين لك لو سمعوه منك سوى تسفيه رأيك
وتضليل عقلك . أنتكر أن تقول هذا في دولاب خسيس مصنوع بحيلة تصيره
لمصلحة قطعة من الأرض أنه كان بلا صانع ومقدر وتقدم على أن تقول هذا
الدولاب الأعظم المخلوق بحكمة تقصر عنها أذهان البشر لصلاح جميع الأرض
وما عليها أنه شيء أتفق أن يكون بلا صنعة ولا تقدير لو احتل هذا الفلك كما تعتل

هذه الآلات التي تتخذ لرفع الماء وغيرها ما كان عند الناس من الحيلة في صلاحه ولو تخلفت عنهم مقدار عام أو بعض عام كيف تكون حالهم بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء أفلا ترى كيف كفى الناس هذه الأمور الجلية التي لم يكن لها فيها عندهم حيلة قصارت تجري حل مجاريا لا تعطل ولا تخل متافعها ومصلحتها ولا تختلف عن موافقتها لصلاح العالم وما فيه .

(فكر) في هذا الحر والبرد وكيف يتعاوران العالم ويتصرفان هذا التصرف في الزيادة والنقصان والاعتدال إقامة رسوم هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فيها من المصالح ثم هما بعد دباغ الأبدان عليها بقاؤها وفيها صلاحها فإن لولا الحر والبرد وتداولها الأبدان لقصدت الأبدان وانتكشت قواها وانتقضت في أسرع مدة . (ثم فكر) في دخول أحدهما على الآخر بهذا التدريج والترسل فإنيك تجد أحدهما ينتقص شيئا بعد شيء والآخر يتزايد مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان ولو كان دخول أحدهما في الآخر مفاجئة لأضر ذلك بالأبدان وأضعفها كما أن امرأة لو خرجت من حمام حار إلى موضع مفرط البرد لضره ذلك وأضعف بدنه فلم يكن هذا الترسل في دخول الحر والبرد إلا للسلامة من ضرر المفاجئة ولم يجري ذلك الأمر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجئة لولا تدبير المذير في ذلك .

فإن زعمت أن هذا الترسل في دخول الحر والبرد إنما يكون لإبطاء مسير الشمس في إرتفاعها وانحطاطها سألت أيضاً عن العلة في إبطاء مسير الشمس في الارتقاء والانحطاط فإن اعتلت في الإبطاء بعد ما بين المشرقين وسطت عن العلة في ذلك فلا تزال هذه المسألة تترقب معك إلى حيث رفيت من هذا القول حتى تستقر على العمد والتدبير . لولا الحر لما كانت هذه الثمار الجارية المدة تنضج فتلين وتعذب حتى ينضج بها رطبة وباسة ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ ويربع الربيع الكثير الذي ينسج للقبوت وما يرة في الأرض أفلا ترى ما في الحر والبرد من عظيم الفناء والشفقة وكلاهما مع عظم غنائه والشفقة فيه يؤلم الأبدان ويضعفها فاعتبر بهذا في كثير من الأمور التي نفس الناس وتحالف أهوائهم وهي من التدبير الحكيم في

فأما حكمة الباري في التدبير في خلق النار على ما هي عليه فإنه لم يكن يصلح أن تكون مبنوثة كالسهم والماء إذا كانت تحرق العالم بما فيه ولم يكن بد من ظهورها في الأحيان لعنتيتها في كثير من المصالح فجعلت كالمخزومة في الأجسام الحافظة لها تسعت عند الحاجة إليها فتمسك بالمادة والخطب ما احتج إلى بذاتها ثم تخبروا فلا هي تمسك أبداً بالمادة والخطب فتعظم المؤنة في ذلك ولا هي تظهر مبنوثة في العالم فتحرق كلها هي عليه بل هي على هيئة وتقدير اجتماع فيه الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها.

ثم في النار نعمة أخرى وهي أنها مما خص به الإنسان دون جميع الحيوان لما فيه من المصلحة فإنه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الخلل في معاشه.

وأما البهائم فلا تستعمل النار ولا تستمتع بها ولما قدر أن يكون هكذا خلقت للإنسان كف وأصابع مهيأة لفتح النار واستعمالها ولم تعط البهائم مثل ذلك لكنها أعيت بالصبر على اجتماع الخلل في المعاش لئلا يسألها من فقد النار ما ينال الإنسان. وإنيك من مصالح النار على حلة صغير قدرها عظيم موقعها وهي هذا المصالح الذي يتخذ الناس فيقصون به حوائجهم ما شؤوا من إيلهم ولولا هذه الحلة لكان الناس نصف أعمارهم محرومة من في القبور فمن كان يستطيع أن يكتب أو يحفظ أو ينسخ في ظلمة الليل وكيف تكون حال من عرض له وجع في وقت من أوقات الليل فاحتاج إلى أن يعالج صعباً أو سهوفاً أو شيئاً مما يستشفى به. فأما منافع النار في نضج الأطعمة ودفع الأبدان وتخفيف أشياء وتحليل أخرى وأشياء هذا فإنه أكثر من أن يحصى وأظهر من أن يحصى حسبك هذا السهم المسمي هواء عبدة وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستشفي منه ومن خارج بما يباشر من روحه وفيه تطرد هذه الأصوات فيؤديها من البعد البعيد وهو الحامل لهذه الأرواح ينقلها من موضع إلى موضع ألا ترى كيف تأتيك الرائحة من حيث تهب الريح وكذلك الصوت وهو القائل لهذا الحر والبرد اللذين يحتفیان على العالم لصلاحه ومنه هذه الريح الهامة فالريح تروّج عن

الأجسام ونزحي السحاب من موضع إلى موضع ليعم نفعه وتركه حتى يستكشف فيمطر وينفضه حتى يستجف فتتفش وتفتح الشجر وتسبر السفن وتذري الأطعمة وتبرد الماء ونشيب البار وتخفف الأشياء الندية. وفي الجملة أيا شيء كمل ما على الأرض فإنه لولا الريح لذوى النبات وموت الحيوان وولغت الأشياء وفسدت. الست نرى ركود السراج إذا ركبت كيف يحدث الكرب الذي يكاد يأتي على العوس وقرص الأصحاء ونهلك المرضى وتفسد الثمار وتغفن البقول ويغيب الموبا في الأمداء والأمة في الغلات. ففي هذا بيان أن هبوب الريح أكثر الأيام من التدبير الحكيم في صلاح هذا الخلق.

وأثبتك عن الهواء بخصلة أخرى فإن الصوت مما ذكرت الحكماء أثر يؤثره اصطكاك الأجسام في الهواء والهواء يؤديه إلى المسامع والناس يتكلمون في حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلاً فلو كان أثر هذا الكلام يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرائس لأمتلأ العالم به حتى يكرهنا ويقدحنا ونحتاج في تبديله والاستبدال به إلى أكثر مما نحتاج إليه في استبدال القرائس لأن الذي يلغى من الكلام ولا يكتب أضعاف ما يكتب فجعل الخلاق العليم هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل كلامنا ربنا يبلغ حاجتنا ثم يمحي قهوداً جديداً نقياً بلا كلفة ما ولا عزم ويجعل ما حلناه أدياً بلا انقطاع

(فكر في خلق هذه الأرض) على ما هي عليه حين خلقت راتبة راقدة لتكون وطاء ومستقراً للأشياء ويمكن الناس والأنعام من السعي عليها في مأربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوهم والأعتان لإعمالهم فإنها لو كانت رجراجة منكفة لم يكونوا يستطيعون أن يتقوا البهائم والبجارة والحديقة والصياغة والحياكة بل كانوا لا ينهسون بالعيش والأرض تروح من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس في زلزال عن قلة مكانها حتى يصيروا إلى ترك منازلهم والحرب عنها. فإن قلت ولم صارت الأرض تزلزل (قلنا) إن الزلزلة وما أشبهها ترهب يرهب بها الناس ليرغبوا ويهزعوها عن المعاصي وكذلك ما ينزل بهم من البلاء في أبدانهم وأموالهم من نقمة ومصيبة وفحط تمهري في التدبير إلى ما فيه صلاحهم واستقامتهم ويدخر لهم أن

صلحوا من الثواب والعوض في الآخرة ما لا يعدله شيء من أمور الدنيا وربما عجل ذلك في الدنيا إذا كان فيه صلاح لعامة أو خاصة ثم أن الأرض في طباعها باردة بآية وكذلك الحجارة وإنما الفرق بينها وبين الحجارة فضل يس في الحجارة أقرأت لو أن اليس أن أفرط على الأرض قليلاً حتى تكون حجراً صلباً أكانت تكون تثبت هذا النبات الذي فيه حياة الحيوان أو كيف كان يمكن فيها حرث أو خضرة أو بناء فلا ترى كيف نقصت من يس الحجارة وجعلت على ما هي عليه من اللين والرخاوة لنتها للأعمال. ومن التدبير الحكيم في حلقة الأرض أن مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب وما كان ذلك إلا لتحد المياه على وجه الأرض فتسقيها وتروها ثم تنفض إلى البحر آخر ذلك فكما يرفع أحد جانبي السطح وينخفض الآخر ليجدر الماء عنه ولا يقوم عليه فيفسد كذلك جعل مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقي الماء متحيراً على وجه الأرض فمنع الناس من أعمالها وقطع الطرق والمسالك.

[أنظر إلى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة التي قد يحسها الغافلون فضلاً لا حاجة إليه والمافع فيها كثيرة فمن ذلك أن الثلج يسقط عليها فيسقي في قلبها لمن يحتاج في القيط إليه ويلذوب ما ذاب منه فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الأنهار العظيمة وينبت منها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت منها في السهل. ويكون فيها كهوف ومعازل للوحش من السباع والعداية وتتخذ فيها الحصون والقلاع المنعة لتتحرز من العدو وينبت منها الحجارة للبناء والأرحاء ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر وعسى أن يكون فيها خلال أخرى لا يعرفها إلا المتفكر لها في سابق علمه.

(فكر في هذه المعدن) وما يخرج منها من الجواهر المختلفة الألوان كممثل الجص والكلس والجير والجصين والزئبق والزاج والمزك والتونبا والنقصة والذهب والزرجرد والياقوت والزئبق والنحاس والبرصايس والخرز والحجارة وكذلك ما يخرج منها من القار والزفت والموميا والكبريت والنفط وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم ومصالحهم وكيف اختلفت طبائعها وألوانها وأحوالها

فمنها ما هو سم قاتل ومنها ما يبعث من السم ويقطعه ومنها ما يقويه ويريل في فعله فهو ينجي عن ذي عقل أن هذه كلها دحائر دحرت لئلاسان في هذه الأرض ليستخرجها فيستعملها عند حاجته إليها.

(ثم فكر في مرة هذا الذهب) والفضة وقصور حيلة الناس بها حاولوا من صنعها على حرصهم واحتياطهم في ذلك فإنهم لو ظفروا به حاولوا من هذا العلم لكأن لا محالة يستظهر ويستفيض في العالم حتى يكثر الذهب والفضة ويسقط عند الناس فلا تكون لها قيمة ويظل الانشراح بها في الشراء والبيع والمعاملات والأثارة نجوى للسلطان والدحر تدحير للأغنياء وقد أعطى الناس مع هذا صنعة الشبه من الحاس والزعاج من الرمل وما أشبه ذلك مما لا مخرجه فيه. فأنظر كيف أعطوا إرادتهم فيما لا ضرورة عليهم فيه وسعوا ذلك بما كان صواباً لهم لو بالغوا. أعرض الناس عن برزول المعادن أنهم أوعلوا في بعضها فانتبهوا إلى موضع رأوا فيه أمثال أحبل من الفضة ومن دون ذلك واد عظيم يجري متصلاً بماء عرير لا يدرك عبوره ولا حيله في عبوره ثم عدوا يطلونه فسم يشعوا عليه فأنصرفوا. أسعوا

(فكر) في هذا من تدبير الخالق فإنه أراد حل شأوه أن يرى العباد قدرته وصحة حرانه ليعلموا أنه لو شاء أن يمنحهم كالحبال من الفضة لفعل لكن لا صلاح لهم في ذلك لأنه كان يكون كما ذكرنا من سقوط هذا الجوهر عند الناس وقلة انتفاعهم به واعتبر ذلك بأنه قد يظهر الشيء الطريف بخلافه الناس من الأولى والامتعة هي دم عريزاً قبيلاً فهو نجس حليل أحد للثمن فإذا فشا وكثر في أيدي الناس سقط عندهم وحسب قيمته وفي هذا مصداق قول الفيل أن عدسة الأشياء من عزتها.

(فكر) في كثرة ما خلق الله من هذه الجواهر الأربع لئلا يمتنع الناس بما يحتاج إليه من ذلك فمن ذلك سعة هذه الأرض وامتدادها فلو لا ذلك كيف كانت تنسع لتكثر الأس ومرازعهم ومرامعهم ومساكن أعشاشهم وأحطاسهم والعقابر العظيمة موقعا منهم وللعادن أحسب عازوها عنهم ولعلك تذكر هذه العنوت الخالية والفقر الوحشة فتقول ما المنة فيها أصبت أنها مستكنة هذه الوحوش ومحبها

ومرعاها ثم فيها منقى ومضطرب الناس إذ احتاجوا إلى الاستدال بأوطأهم
فيكم من بقاء سملقاً - قد حالت قصوراً وحداً بانتقال الأسنان إليها وحلوهم
فيها ولولا سعة الأرض وفسحها لكان الناس كمن كان في حصار حصن لا يجد
مدوحة من وطئه إذا حربه أمر بصفره إلى الانتقال عنه وكذلك انه لولا مدغفه
وحريانه في العيون والأودية والأنهار لضاقت عما يحتاج الناس لشربهم وشرب أبعدهم
ومواشدهم ومنى وروغهم وأشجدهم وأصفى علائهم وشرب ما يرد من
الوحش والعير والسباع وينقلب فيه من الحيتن ودوام الماء وهكذا طواء أبعث لولا
كثرة وسعة الأرض هذا الأنام من الدخان والبحار الذي يسبح فيه ولعجز عم
يجول إلى الغباب والسحب أولاً وأولاً.

والله أيضاً كدلت عاها وإن لم تكن مشوثة في كل مكان فرب عبيده من
احتج إليها واسعه لكونه يحتاج إليها منها أنها عروية في الأحكام للنسب الذي
ذكرنا آنفاً.

وأذكرك من منافع الماء جللاً أنت يا عارف وهي عظيم موقعها عاقل من
سوي الأمر خليل المعروف في عاها في إحياء جميع ما على وجه الأرض من حيوان
أو نبات به تخرج الأشربة قتلبي ونعمند وتطبل لتأريها - وه نرحض الأمدان
والأمثلة من سرن الذي بعشاه وه بل التراب ويصلح للاعتماد به - وه يكف
عادية النار إذ اضطربت وأشقى الناس منها عن هلاك والمكروه وه سبيح العاص
ما عصى به فينحو من الموت وه يستحم التعب - كمال فيجد الراحة في أوصاله إلى
أشياء هذا من مأرب التي يعرف عظم موقعها في وقت الحاجة إليها فإن شكتك في
معدة هذا الله الكثير الشراكم في البحار فقلت ما الأرب فيه ما علم أنه مسكن
ومضطرب لما لا يجهي من أصناف السمك ودواب البحار ومعدن التزبل والمراح
والباقوت و عسر وأصناف شتى تسحرج من سحر ومن سواحلها مبيت العود
والهناجوج وصروب من الطيب والعقاقير ثم بعده هو مركب للناس وعمل لعدة

(١) السملق لحمه الطازج الصنف الأحمر من

استحاراف التي تحمل من البلدان البعيدة كما يحمل من الصين إلى العراق ومن العراق إلى الصين ومن هذه التحركات لو لم يكن لها عمل إلا على الظهور لبدت رغبة في بلدانها وأيدي أهلها لأن أسرة محمدا كان يحوز أثمانها فلا يتعرض أحد لحملها وكان يجتمع في ذلك الموانئ أحدهما فقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها والآخر انصداع معاش من يحملها ويتعيش بمصلها

(فكر في نزول المطر على الأرض والتدبير فيه فإنه جعل يحذر عليها من أهلا يعضى ما غلط منها وارتفع هيوه ولو كان بما يأتيها من بعض نواحيها لا علا لموضع المشرقة منها والقل ما يروع من الأرض لا ترى الذي يروع سبعا أهل من ذلك والأمطر هي التي تطلق الأرض وما تروع هذه لمراري الواسعة ومسوح بحال ودرهم فعل لعمه الكثيرة وما يسقط على الناس في كثير من البلاد مؤنة سيوف الماء من موضع إلى موضع وما يجري بينهم في ذلك من الشاح والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء

ثم به حين قدر أن يحذر على الأرض محذورا جعل ذلك قطراً شبيهاً بأرض البحر في قعر لأرض هيوه ولو كان يسكن استكائاً كان يظل على وجه الأرض فلا يعور فيها ثم كان يحطم لزروع نافعة إذا مدق عليها فصار يرب مرواً رقيقاً ليست الحب المزروع ويحى الزرع القاتم ثم في نزوله أيضاً مصلح أخرى فإنه يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء ويرتفع رواء المحدث من ذلك ويفضل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء يسمى باليرقان إلى أشياء هذا من المصالح فيه

(هنا فنت) أو ليس قد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم لشدة وقع منه أو برد يكون فيه تحطم العلات أو بحشورة يبدلها الهواء فيكون كثيراً من الأمراض في الأبدان والأفات في العلات (فك) بل قد يكون ذلك في العرط لما فيه صلاح الإنسان بكفه عن ركوب المعصي والتماذي فيها فتكون المنفعة له فيها بمصلح له من دينه أرجح مما عسى أن يوزا في ماله

(فكر في المطر والنصح) كيف يعتقدان على لعالم له فيه صلاح ولو دام واحد

منها عليه كان في ذلك حسنة ألا ترى أن الأمطار إذا تولت عفت انقزل والخضر واسترحت أسدان الخيول وحشر الهواء^(١) فأحدث ضرراً من الأمراض وسدّت الطرق والمسالك. وأن الصحر إذا دام جفت الأسدان ونصوح الشات وبطيه نصح الثمار وغيض ماء العيون والأودية فأضر ذلك بالناس وعلب ليس على الهواء فأحدث ضرراً من الأمراض فإننا نعلم على هذا العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادة الآخر فصحت الأمور والأشياء واستقامت.

(فإن قلت) ولم يكون في شيء منها مصرة التفت قل لبعض ذلك الإنسان ويؤله بعض الألم ليرعوى وينزع عن المعاصي فكيف أن الإنسان إذا سجد بديه استنج إلى الأودية الكريمة المرة المنبعة لتقوم طاعته وتصلح ما فسدت منه كذلك هو إذا صم وأضر احتاج إلى ما يحضه ويؤله بعض الألم ليرعوى ويعصر عن بعض مساويه ويسته على ما فيه حظه ورشده.

ولو أن ملكاً من الملوك قسم في أهل مملكته فاطير من ذهب وقصه ألم يكن ذلك سيئهم عددهم ويذهب له به الصيت والذكر فأين ذلك من مضر واحد بهم سداد وفيه ما يريد في العلات من فاطير الذهب والفضة في أقاليم لأرض كلها أعلام ترى المطرة الواحدة ما أكثر قدرها وأعظم النعمة عن الناس فيها وهم يحب سهرهم وربما عافت أحدهم عن الحاجة لا قدر لها فتدمر وتسخط يثأراً للخييس قدره على نفعه العظيم.

(فكر في هذا لسان) وما فيه من ضرر من المآرب الثمار لغذاء والآث للعلف والحطب للوقود والحطب لكل شيء من أعمال البحارة والبناء والورق والنزهر والأصول والفروع والصروع للضرر من السافع أنفريت نو كما نجد الثمار التي بها تتغذى مجموعة على وجه الأرض ولم يكن ينت على هذا السوق ولأعصان الحاملة لها كم كان سيدخل علينا من الخلل في معاشنا وهل كانت حياة

(١) الفاعوس الحشر عمر كذا المكر.

بـ احدهما في الأرض فاندس في كونهما على ما هي عليه بين النعم والحكمة. وإن
 قد أعداء موجوداً فإن المدح في الخطب والخشيش والأنياب وسائر ما عددنا عظيم
 موقعها جليل فقد هذا مع ما في البياض من التمدد بحسن مطرة ونصارت التي لا
 بعدها شيء من مظاهر العلم وملاهبه فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه.

(ثم فكر في هذا التربع) الذي جعل في الأرض حتى صارت الحبة الواحدة
 تحف مئة حبة وأكثر وأقل وكان يجوز أن تكون الحبة ثلثي حبة مثلاً فلم صارت
 تربيع هذا التربع كله إلا ليكون في الحبة متسع لما يورث في الأرض من الحب وما
 يورث الرزق وعيونه إلى ذلك رزقه لا يرى أن الخلق لو أراد عمارة بلد من
 سددان كان السبل في ذلك أن يعطي أهلها ما يدرؤونه في أرضهم وما يقوتهم إلى
 درعهم رزقهم فانظر كيف نجد هذا المثال قد تقدم في تدبير الحكيم فصار الرزق
 تربيع هذا تربيع نبي ما يحتاج إليه لبقوت وزراعة وكذلك الشجر وسجل تربيع
 لربيع الكثير فإنه يرى الأصل الواحد حول من الشكل أمر عظيم فلم كان ذلك
 إلا ليكون فيه ما يعطيه الدس ويستعملونه في منزلهم وما يورث في الأرض
 ولو كان الأصل منه شيء مبرداً لا يفرح ولا يربح لما أمكن أن يقطع منه شيء
 يعمل ولا يعرض ثم كان أن أصابت آفة انقطع أصله فلم يكن منه حطب

(تأمل سمات هذه الحبوب) من لعدم واضح والدحر والفخر وما أشبه ذلك
 فإنها تخرج في أوعية شبه الحرفان لتتصوب وتحميها من الأفات إلى أن تشتد
 وتستحكم ثم قد تكون أشبهة على الحيز لهذا المعنى بعينه

فإنما البرد وما أشبهه فإنه يخرج مدرجاً في فصوص صلاب على رؤوسها أمثال
 الأسنة من السما لمتنع لطيف منه من قلت أو ليس قد يبار الطير منه على حال من
 البر واخوب فلما بل لعمرى ومن هذا قلدر لأمر فيها لأن الطير أيضاً خلق من
 خلق الله تعالى وقد جعل له فيها يخرج من الأرض خطأ ولكن حصنت الحبوب
 من الحب لكيلا يمكن الطائر منها كل التمكن فيعت فيها ويعبد الفساد
 الفاحش فيه لو كان حب بصاب والحب بارز ليس عليه شيء يحول دونه لأكتب

علمه حتى يشقعه أصلاً فذلك معرض من ذلك أن يشتم الصخر فسموت ويخرج الزاوي
من رزاعته صمرا فمخبط هذه التوفيق لتصويه فبال الطير منه شيئاً يسيراً
ويتقوت به ويقش أكثره بلاسان لأنه أولى به إذا كان هو الذي طرح فيه وسقاه
وكان الذي يحتاج إليه أكثر مما يحتاج إليه الطائر.

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات فيها لو كانت تحتاج إلى
العداء الدائم كالحاجة للحيوان ولم تكن لها أقوه كقوله الحيوان ولا حركة سمعت بها
لتنال العداء جعلت أصولها مركوزة في الأرض لتسرع بها العداء فتؤديه إلى
الأعصاب وما عليها من الورق والتمر فصارت الأرض كدام المربيه من وحساب
أصولها التي هي لها كالأقوة المنقمة للأرض لتسرع منها العدو كمن ترصيع أصناف
الحيوان من أمهاتها ألم تر إلى عدد القسطاط والحسم كيف تعد بالأصناف من كل
جانب لتنت متصلة فلا تسقط ولا تفسد فهكذا تعد النبات كنه له عروق منتشرة في
الأرض وممتدة إلى كل جانب لتسبك وتعيبه ولولا ذلك كيف كان شت هذه
الحل الطوال والدوح العظام في الريح العاصف.

فانظر إلى حكمة الحنطة كيف سبقت حكمة الصاعدة فصارت الحكمة التي
تستعملها الصاعدة في ثبات القساطيط والخيم متأخرة لأن خلق الشجر قبل صاعدة
القساطيط والخيم^(١) ألا ترى أن عمودها ودعائمها وعيدنها من الشجر فيجئ من
قل الأولون (الصناعة تحكي الطبيعة).

تأمل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مشوبة فيها أجمع فمما
علاط ممتدة في طولها وعرضها ومما دافق تتجلى تلك العلاط مسوغة سحاً رقيقاً
معها لو كان مما يصنع بالأيدي كصناعة الشرط فرع من ورق شجرة في عام كامل
ولا احتيج فيه إلى آلات وحركة وعلاج وكثج فصار يأتي منه في أيام هلال من.

(١) اعلم في كتاب الحكمة في مخترعات الله تعالى هناك فاعلم إلى حكمة الخلق كيف صنعت حكمة
الصاعدة فيكون الناس في أعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته ما هو وحرر وصل

الربيع ما يملأ الحبال والسهول ويذبح الأرض كلها بلا حركة ولا كلام إلا الأرادة
 الداعية في كل شيء. وأعرف مع ذلك العلة في تلك العروق فإنها جمعت لتحلل
 الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها المادة بمنزلة العروق المثبثة في ندد لتوصل
 الغذاء إلى كل جزء منه وفي الغلاط أيضاً معنى آخر فإنها تمسك الورقة بصلاتها
 ومنتها لكيلا تتهك وتتفرق فترى الورقة شبيهة بورقة معمولة بالصنعة من خرق
 قد جعلت فيها عيذان ممدودة في طولها وعرضها لتتماسك فلا تضطرب فالطبيعة
 وإن كانت تثل بالصناعة فإن الصناعة هي التي تشبه الطبيعة

(فكر في هذه المعجم والنوى) والعلة فيه فيه جعل في حروف الثمرة ليقوم
 مقام الغراس. إن قام دون العرس عائق كما قد يخزن الشيء الفيس الذي تعظم
 الحاجة إليه في مواضع شتى فإن حدث عمل الذي في بعض المواضع مع حدث واحد
 في آخر ثم هو بعد يمسك بصلاته رخاوة الثمار ورفقها ولولا ذلك لشدحت
 ونصحت وأسرع إليها الفساد وفي بعضه حب يؤكل وينسحق دونه فيستعمل في
 ضروب من المصالح.

وإذا قد تبين لك موضع الأرب من المعجم والنوى ففكر الآن في هذا الذي
 يخرج فوقه من المأكول الذي يجده فوق البوابة من لوطب وهوق المعجم من العبة ما
 علة فيه وهذا يخرج هذه العلة^(١) وقد كان يمكن أن يكون مكان ذلك ما ليس فيه
 مأكول كمثل ما يكون في السرو والذلب والطرفا وما أشبه ذلك فلم صلب يخرج
 وفوقه هذه اللطاعم المديدة إلا ليستمتع به الإنسان ويسأل منها بعض الأنعام
 والطيور.

(فكر في ضرب من التدبير في الشجر) فربك نراه يموت في كل سنة موتة
 فتحتس الحرارة الطبيعية في غوره وتولد مواد لنماز ثم تحيا وتتشتر فتأتيك هذه
 لغوكة نوعاً بعد نوع كما تقدم إليك أنواع الأحصنة التي تعالج بالأيدي واحداً بعد

(١) وحدة أو لعمري المصوب هذه طينة كما يستخرج من الصندل في كتب الحكمة لعمري

واحد ترى الأعصاب في الشجر ملءة بالشمع حتى كأنها تسلكها من مد وترى
الرياحين تلفك في أواب كأنها تحيك أسماها فمن هذا التدبير إلا لغفر حكيم
وما العلة فيه إلا تفكيكه الأسان بهذه الأنواع ألا تعجب من أناس جعلوا مكان
الشكر على النعمة جحود المنعم بها.

(فكر في خلق الرمادة) وما ترى فيها من أثر العمد والتدبير فربك ترى فيها
كأشكال التلال من شحم مركوم من نواحيها وحب مرصوف وصفاً كحجر ما يصفه
بالأبدني وترى الحب مقسوماً أقساماً كل قسم منها مضمون بالتغاييف من حب
مسوحة أصعب سيج وأنفذه وقشره يصفم ذلك كله فمي التدبير في هذه الصفة
أنه لم يجر أن يكون حبش الرمادة من الحب وحده وذلك أن الحب لا يجد بعضه بعضاً
فجعل ذلك الشحم حلال الحب ليمسه بالعداء ألا ترى أن أصول الحب مركورة في
ذلك الشحم ثم لف الحب في تلك التغاييف يصفمه ويمسكه فلا يصطرب وعش
فوق ذلك بالشرة المستحصمة لتصوره وتحمطه من الآفات فهذا قليل من كثير من
وصف الرمادة وفيه أكثر من هذا لم أره إلا الطب والذرع في الكلام ولكن في هذا
الذي ذكرنا منه كفاية في الدلالة والعبرة.

(فكر في حل البسطي) الصيف مثل هذه الثمار اشغال كالماء والفساد
والحرز وما في ذلك من التدبير فإنه لا قدر أن تحمل مثل هذه الثمار حمل مائه
مسطاً على الأرض ولو كان مسطاً قاناً كما ينصب الريح والشجر لا استطاع أن
يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة ولتخسفت قبل يتركها وتتهتها إلى غاياتها. فأنظر
كيف صار يمتد على وجه الأرض لينفي عليها ثقله فتحملها عنه يرى الأصل من
الفرع والطيط معتزلاً على الأرض وتطاره مشوشة حواله كأنها هرة متعددة قد
اكتشفها أجروها لترضع منها فأنظر كيف صارت هذه الأصناف توي في الوقت
المشاكل لها من حمولة الصيف وومده الحر ففدها بطبيعة بشرح ونشوق إليها ولو
كانت توالي في الشتاء لوافقت من البس كراعية ها واقشعروا منها مع ما يكون من
من المضرة للأمان ألا ترى أنه دعا أدرك شيء من الغناء في الشتاء فمنع البس
من أكله إلا الحشع الذي لا يمنع من أكل ما يصره ويستخرج معبه

(فكر في حلة تحده في الحل) فإنه لما صدر منها إشارات تحتاج إلى التلخيص جعلت فيها ذكور تطلق فصار الذكر من الحل بحملة الذكر من الحيوان الذي تطلق الأنثى لتحمل وهو لا يحمل.

تأمل حلقة الخدع قبل أن نراه مسججاً نسجاً من حيوط محبوبة كالسدي وأخرى معترصة كاللحمة كنسج ما ينسج بالأيدي وذلك يشتد ويصلب ولا ينصف من حل القنوان الثقيلة وهبوب الرياح العواصف إذا كان نخلة وليتها للسفوف والحسود وغير ذلك مما يتخذ منه إن كان جذعاً فكذلك ترى في الخشب منه شبه السج فإنك ترى بعضها متداخلاً بعضها طويلاً وعرضاً^(١) كتداخل أجزاء اللحم وفيه مع ذلك متانة يصلح له يتحد منه من الآلات فإنه لو كان مستحسناً كالخجارة لم يكن أنه يستعمل في السفوف وغير ذلك مما يستعمل فيه الخشب كالأبواب والأسرة والتوابيت وما أشبه ذلك.

ومن حسيم المصالح في الخشب أنه يظفر على الماء فكل الناس يعرف هذا وليس كلهم يعرف خلالة والفع فيه فلولا هذه الحلة كيف كانت هذه السفى والأطواب تحمل أمثال الجمال من الحمولة وإن كان يبال الناس هذا المرفق وخفة المؤنة في حمل التجارات من بلد إلى بلد بل كانت ستعظم المؤنة عليهم في حملها حتى تلغى كثيراً منها في بعض البلدان مفقوداً أصلاً أو عسيراً وجوده.

(فكر في هذه العقاقير) وما يخص به كل واحد منها من العمل في بعض الأدواء فهذا محور في المفاسل فيستخرج الفصول الغليظة مثل الشيطرح وهذا برف المرة السوداء مثل الأيتيمون وهذا يقوى الريح مثل السكيك وهذا يجلل الأورام مثل الرزايانج وأشياء هذا من أفعالهم فمن جعل هذه القوى فيها الأمن خلقها للمتعة ومن عطن الناس لها إلا من جعل هذا فيها ومنى كان يوقع على هذا منها بالعرض والاعتاق كما قال قائلون وهب الإنسان قطعة لهذه الأشياء يذهبه

(١) هكذا ولعل الصواب بعضها متداخلاً طويلاً وبعضها عرضاً.

ولطيف رويته فالهائم كيف طفت ها حتى صر بعض الهائم تدوى من جراحة
أن أصابته ببعض العقاقير فتبرأ وبعض الطير يحقن من الحصر يصيبه بماء البحر
يسلم وأشياء ذلك مما يذكر في كتب الطب والطبيعة.

ولملك تشك في هذا البات البات في الصحاري حيث لا أنس ولا أيس
تظن أنه فضل لا حاجة إليه وليس كذلك بل هو طعم لهذه الوحوش وحبه علف
الطير وموقعه وأفائه حطب يستعمله الناس وفيه بعد أشياء يصلح بها الأبدان
وأخرى يذبح بها الجلود وأخرى يصنع بها الأمتعة وأشياء هذا من المصالح . الس
تعلم أن من أحس البات وأحقره هذا البردي والحلفا وأشياءه وفيه مع هذا
خروب من اساعق فقد يتخذ منه القرطاس الذي يحتاج إليه الملوك والسوقة والحصر
التي يستعملها كل صنف من الناس ويعمل منها القلف التي تولي بها الأواني يعمل
حشواً بين الظروف في الأسفار كيلا يعب ولا يتكسر وأشياء هذا من المنافع في
صغير الحلق وكبيره وذوي القيمة من وما لا قيمة له . وأحسن من هذا وأحضر الزبل
والعفرة التي اجتمعت فيها الحساسة والنجاسة معاً وموقعها من البقول والزرع
وجميع الحضر الموضع الذي لا يبدله شيء حتى أن كل شيء من الحضر لا يصلح ولا
يزكر إلا بالزبل والسماد الذي يستفد منه الناس ويكرهون الدنو منه أنه ليست مزاكاة
الشيء في العلم على حسب قيمته في السوق بل هما قيمتان مختلفتان لسوقين مختلفين
وربما كان الحسيس في سوق الكسب نعيماً في سوق العلم فلا تستصغر العبرة في
الشيء لصغر قيمته .

فكر في بنية أسنان الحيوان ونبيتها عن ما هي عليه فلا هي صلاب
كالحجارة إذا كانت لا تتنى ولا تنصرف في الأعمال ولا هي على غاية اللين
والرخاوة إذا كانت لا تتحامل ولا تستغل فجعلت من لحم رغو يتنى بتداخله
عظام صلاب تسكه وعروق نشده وظم بعضه إلى بعض ثم غلقت فوق
ذلك بجلده يشتمل على البدن كله .

ومن أشياء ذلك هذه التماثيل التي تعمل من العبدان ويلف عليها الحرق
وتشد بالخيط ويظلي فوق ذلك بالصمغ فتكون العبدان بمنزلة العظام والحرق

معرفة اللحم والخسوط معرفة العصب والعروق والظلم معرفة الخلد هي موجودة أن يكون الحيوان الحي المحرك حدث بالإهمال أو من غير صانع فحوار ذلك أولى في هذه التماثيل الحية وإن أعادك هذه في التمثيل هي الحيوان أخرى أن يتعذر عيبك

وفكر بعدها في أحوال الأعمى فيها حين خلقت كي حققت أمدان الأس من اللحم والعظم والعصب أعطيت أيضاً السمع والبصر ليبلغ الإنسان حاجته فيها لو كانت عيباً صلياً لما انتفع بها الإنسان ولا تصرف في شيء من مآربه ثم منعت الدهن والعقل لنذل للإنسان فلا تنجح عليه إذا كدها تلك الشدة وحملها الثقل ولعلنا نقول أنه قد يكون للإنسان عيب من الأس يدلون ويدعون بالكفة الشديدة وهم مع ذلك غير عديمي العقل ولدهن فنقول في جواب ذلك أن هذا النصف في الدهن قليل وما أكثر الناس فلا يدعون بما يدعي به الموب من الحمل والصحر وما أشبه ذلك ولا يفرون بما يحتاج إليه منه ثم لو كان الناس يرادون مثل هذا العمل بأبدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الأعمال لأنه يحتاج مكان لحمل الواحد والعمل لوحد إلى عدة أسس فكان هذا العمل يستغرق الناس حتى لا يكون فيهم عنه فصل شيء من الصناعات والمهن إلى ما كان سيدهم من التعب العلاج في أبدانهم والضيق والكدر في معاشهم.

فكر في حلقة هذه الأصناف الثلاثة من الحيوان ونهيتها على ما فيه صلاح كل واحد فالأس لما قدر أن يكون ذوي دهن ومطبة وعلاج مثل هذه الصناعات من البناء والحدادة والخبز والحرارة وما أشبه ذلك خلقت لهم أكف كسائر دواب أصابع غلاط تمكن من القصر عن الأشياء ومراولة هذه الصناعات وأكلات من لحم لما قدر أن يكون معاشها من الصيد خلقت لها أكف لطاف مدعة دوات براني ومخالب تصلح لأحد الصيد ولا تصلح للصناعات. وأكلات ثبات لما قدر أن تكون لأدب صعبة ولا ذات صيد خلقت لبعضها أصناف تغنيها حشونة الأرض إذا حدث في طلب المرعى وبعضها حوافر مملئة دوات فعر كاحص يقدم ليطبق على الأرض وينتهي للركوب والحمولة

تأكل الدبر في سلقه اكالات اللحم من الحيوان حين جعلت ذوات أسنن
 حداد ورائش شداد وأغواء واسعة فإنه لما قُدر أن يكون طعمها اللحم خلقت حلقته
 تشاكل ذلك وأعيت سلاح وذوات تصلح لصبه فكذلك نجد مساع الطير ذوات
 مناقير وغلاب مهياة لفعالها لو كانت الوحوش ذوات غلاب كانت قد أعطيت ما لا
 تحتاج إليه لأنها لا تصيد ولا تأكل اللحم ولو كانت الصباع ذوات أطراف كانت قد
 سمعت ما تحتاج إليه أعني السلاح الذي به تصيد وتعيش أفلا ترى كيف أعطي
 كل واحد من المصعين ما يشاكل صمته وطبيعته بل ما به بقاؤه وصلاحيه أنظر إلى
 أولاد ذوات الأربع كيف تتبع أمهاتها مستقيمة بأصبعها لا تحتاج إلى حمل والتمسك
 كما تحتاج أولاد الأس من أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من
 شبريق والعلم والتربية والقوة عليها بالأكف والأصابع المهياة لذلك أعطيت
 النورس والاستقلال بأصبعها. وكذلك ترى فراخ كثير من الطير كمثل الفراخ
 والدجاج وتفتح يدرج ويلقط حين ينقات عنها البيض^(١) فلما ما كان منها صغيراً
 لا هووس به كمثل فراخ الحمام والهام والخمر فجعل في الأمهات فصل عصف
 فصار فتح العصف في فيه بعدما نوجه حواصلها ساعة ليلى ويسهل قنول الفرح ولا
 ثزال تعدوه حتى ينهض ويستعمل نفسه وكل أعطي بقسطه من التدبير الحكيم
 أنظر إلى قوائم الحيوان كيف تأتي أزواجاً لينهاً لمشي ونو كانت أقداماً لم تصلح
 لذلك لأن المشي ينقل بعض قوته ويعتمد على بعض فذو القانتين ينقل واحد
 ويعتمد على واحد وذو الأربع ينقل اثنين ويعتمد على اثنين من خلاف لأن ذا
 الأربع لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر
 لم يثبت على الأرض كما لا يثبت السرير وما أشبهه على قائمتين من أحد جانبيه على
 أنه ليس في السرير روح والروح حمل الحيوان فصار ينقل الجسم من مفاديه مع
 البسري الأخرى من مأخذه ويفر الأخيرين أيضاً من حلال فيثبت على الأرض ولا
 يسقط إذا مشى

(١) في القاموس ثبت استخرج الملح ١٤٠ مصححه.

أما ترى كيف يدل لبحروله والطحن وهو يرى القرس مودها معيا والعبير
الذي لا يطيعه عذو وحسن أو استعصي كيف ينفذ لنصبي والثور الشديد يندع
لصاحبه حتى يصنع الثمر على عقبه فيحترث لأرض به والقرس الكريم يركب
بالسيف والأسنة بالمؤونة عارمه وكيف يتصرف في الكر وحر والني والعدو، د
صوع عانه وأقحمه عن السيوف لعشيه^{١٦} وللقطيع من الضم يرمعه رجل واحد
ولو نعرفت العلم ماحدث كل واحدة من في ناحية لم يلحقها وكذلك جميع
الاصناف مسخرة للإنسان فمن كانت ذلك إلا بأنها عذمت العقل والبرية فأيا لو
كانت تروى في الأمور كانت خليفة أن يلوى على الأسد في كثير من مآربه حتى
يمنع الخمس عن فائده والثور على صاحبه والعنق على راعيها وأنشاء هذا من الأمور
وكذلك هذه السباع لو كانت دون عقل وبرية فتوردت عن الناس كانت خليفة
أن لجأهم فمن كان يقوم للأسد والذئب والسمور والضباع والذئب والذئب والذئب
والخيات لو تعاونت وتظاهرت على الناس.

ألا ترى كيف حذر ذلك على فصرت مكان ما كان يخاف من إقحامها
ويكبتها تهاب مساكن الناس ولجأهم عنها ثم لا تظهر ولا تنشر في طلب قوتها إلا
بالليل فهي مع عداوتها وصوتها كاحائه للأسد بل هي مضوعة بمجموعة منهم ولولا
ذلك لساورتهم في مساكنهم وضيق عليهم مسكنهم.

أما ترى الكلب وهو كعص الساع بحذية كيف يسوق على الحيطان
والسطوح في صلمه الليل لحرامه من كل صاحبه وذب الدعر عنه ويبلغ من محبة
لصاحبه أن يبدل نفسه لموت دون ماشيته ودمه وماله عية الألف حتى يصبر معه
عن الخوف والعطش فلم طبع الكلب على هذا الألف والمحبه للأسد إلا ليكون
حارساً للإنسان حافظاً ماله في أوقات غيبته. ثم أنه حين جعل حارساً للإنسان
أعني باليب وغالب وساح هائل ليدفع به لسارق والمربك وينتج الموضع التي
تحبها كلاب وله شجاعة لا تلبه وحسن لا يخونه وسعي يلحق به الضياء وشم

(١٦) هكذا المدونة: «عبر» بـ «هذه» كلمة أو كلمتين و «كان» التي معهوداً «هذه» مصححة

يستروح به انفس الطير و الارانب والثعالب في مكانها وغير ذلك ثم انظر لما صار
 ظهر الدابة مسطحاً منطوياً على عرقه ثم ارفع الّا لتبهاً للركوب والحمولة ولم صار
 حياها بارزاً من ورائها ولا يتمكن الفحل من ضرابها فيه لو كان من أسفل الفحل
 كما كان الفرح من الثراء لم يتمكن الفحل منه الا ترى انه لا يستطيع ان يأتها
 كفاحاً كما يأتي المرحل المرأة وقد ذكر أرسطاطليس في كتاب الطيران أن حيا الأسي
 من الفينة في أسفل مطها فإن كان وقت الضراب ارفع وبرز للفحل حتى يتمكن
 من ضرابها.

فاظر كيف جاء الحيا في لأش من الفينة على خلاف ما هي عليه في غيره
 من الأعمام ثم جعلت فيه هذه الخلة تبهاً للأمر الذي به تقوم السر.

انظر إلى هذه الهدم كيف كسبت أعضائها هذه الكسوة من الشعر والوبر
 لبقها من البرد وكثير من الأفاعت وألست قوائمها الأظلاف والحوافر تغطيها من
 الحاف وإياها لم كانت بهائم لا أقدام لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للعمل والسير
 كهيئة ذلك نأه جعلت كسوتها في حلقها مائبة عليها ما لم يمت لا تحتاج إلى تحديدها
 ولا استدراكها فإما الإنسان فهو ذو حيلة وكف مهيأة للعمل فهو يعمل وسرع
 ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال وله في ذلك صلاح من جهات
 (منها) أنه يشتغل بصناعة اللباس عن الغيت وما تحرجه إليه الكفاية (ومنها) أنه
 يستريح إلى حلق كسوته إذا شاء ويمسها إذا شاء (ومنها) أنه يتخذ نفسه صروراً
 من الكسوة هذا جمال وروعة فيتقدم بسبها وتبديلها (ومنها) أنه يتخذ ذرة بالعمري
 وتارة يتعم باللباس وكذلك يتخذ بالترف والصعة صروراً من الحذف والمعد
 يفي بها قدميه فصار لشعر والوبر يقوم للمهائم مقام الكسوة وأظلافها وحوافر
 مقدم الخذاء.

(فكر في حلفة عجينة) جعلت في البهائم الوحشية وإياها توارى أنصبها كما
 توارى الناس موتاهم ولا فليس حيف هذه الوحوش والسيح وغير ذلك لا يرى
 منها شيء وليست شيئاً قبيلاً تحصى لقلتها بل لو قال فائق أنها أكثر من حيف
 الناس لصديق واعتر ذلك مما نراه في هذه الصحاري من أضرب لطاء والمها

والبحر والوعول والأهلي وغير ذلك من الوحوش وأصفه الصبغ من الأسد
والصناع وبنات والسمور وغيرها وصروب الخوام من الحشرات وبنات الأرض
وكذلك أسراب الطير من الغربان والقطا والأوز والكراتي والحمام وسباع الطير
أجمع هائى هذه كلها لا ترى منها شيئاً ميتاً إلا الواحد بعد الواحد يقصده قاتنص أو
يفترسه سبع فما يدل عليه القياس أنها إذا أحسنت بالموت تكفى في مواضع خفية
فتموت فيها علولاً ذلك لأمتلات الصحاري منها حتى تصد رائحة الهواء وتحدث
الأمراض والوباء فانظر إلى هذه الذي تخلص الناس إليه بالفكر والروية كيف جعل
طبعاً في الهائم ليسلم لناس من معه ذلك وأما ما جعل بين الناس عيشه من
الأنعام والطير والخوام فلقدرة الناس على نقله والتدبير في دفع أذيته فقد نزع منه ما
جعل في الوحوش وهو دليل على أن العالم ليس برحال.

نفس وجه الدابة كيف هو حيث ترى العين شاخصين أمامها شطرها ما بين
يديها فلا تصدم حائطاً ولا تسدي في حفرة وتخرس نفسها ومارسها وتري القم
مشقوقاً شقاً في أسفل الحظم لتتمكن من العض على العلف فإنه لو كان قواماً في
مقدم الحظم كما كان اعم من الاسنان في مقدم الذئب لما استطاعت أن تتناول شيئاً
من الأرض ألا ترى أن الاسنان لا تتناول الطعام فيه ولكن بيده فلي لم يكن للدابة
بأن تتناول به العلف جعل حطمتها مشقوقاً من أسفل لتضعه في العلف ثم تقضمه
من مقصمه وأعيت بالحيلة لتعقم بها ما قرب منها وما بعد فلا يعونها شيء من
طعام وإن شك شك في الذئب والمنفعة فيه فقل بمبلغ علمنا أن لذئب الدابة أسباباً
منها أنه بمجرة الطلق على تدبير الخبا جميعاً يورثها ليستريح ومنها أن بين الذئب
ومرق البطي من الدابة وصراً بدا تجتمع عليه الدباب والبعوض والفردان والحلقة
صجعل لها الذئب كالدابة نذب بها عن ذلك الموضع ومنها أن الدابة تستريح إلى
تحريكه وتصريحه بمدة ويسره فإنه لو كان قواماً على الأربع بأسرها وشغلت
القدمتان بحمل البدن على التصرف والقتل والتلفت كان لها في تحريك الذئب
مسرة وراحة وعسى أن يكون فيه أسباب أخرى يعصر عنهم الوباء ويؤذيها
السمع إذ سمعها لأنه لا يعرف موقعها إلا في وقت الحاجة إليها فمن ذلك أن

الإنسان ترتطم في الوحل فلا يكون شيء أعرف عن ميوعتها من الأحاد بدنها

أنظر إلى مشفر الفيل وما فيه من لطيف التدبير فإنه صدر يقوم له مقام اليد في تناول العلف والماء وإيراده إلى حرقه ولولا ذلك لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض لأنه ليست له عتق يمدّها كسائر الأعدام فلما عديم العتق أحلف عليه مكان العتق ذلك الحارطوم الطويل ليسدنه فيتناول به حاجته وجعل أجوف لأنه وعاء له يحمل إلى صدره من طعامه وشربه وأيضاً فهو سلاحه وبه يعطي ويتناول ويقبض ويصول فمن الذي عوضه مكان العضو الذي عديمه ما يقوم له مقامه إلا الرأوف بحلقه كيف بأنّ مثل هذا بالإهمال كما قال الفلمسة

فإن كنت ما دانه لم يخلق ذا عتق كسائر الأعدام أحب يبلغ عسماً فقل أن رأس الفيل وذيّه وتاليه أمر عظيم وثقل تقبل فلو كان ذلك على عتق لهدا وأوهب فحمل رأسه منصفاً لكيلا يباله ما وصلها وحنق له مكان هذا المشفر يتناول به عدائه فصار مع عدوه عتق مستوفى ما فيه نوع حاجة وشكون اختلاف احنق أد على القدرة والتدبير فيتناول العلف بمشرفة وحر يعبه وأحر يده وأحر ينفذه ويكون لبعض معقفاً^(١) كالصوحد إلى روره^(٢) وأحر معقفاً إلى حسه وأحر عريضاً وأحر كالظفرين وأحر كالنحب وذلك عن مقدار ما يصلح بمشاهم في لقط أو صيد وغير ذلك ومن أجوب من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجليه ومنهم من يمشي على أربع اقتداراً من رب العالمين على خلق ما يريد كيف يريد وهو على كل شيء قدير.

(فكر في خلق الرأفة) واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء أصناف من حيوان فراسخ وحلده جدد عمر وعظها عتق حمل وأطرافها أطراف لغير حتى أن ناساً زعموا أن نتاجها من فحول شتى وسب ذلك أن أصنافاً من حيوان الرأفة ذكروا إذا وردت على بعض الماء تروى عن بعض سائمة فتنتج مثل الشخص الذي

(١) في الفلموس عتقه.

(٢) روره وسط صدر وما ارتفع منه إلى كعبي أو يلفظ منه صدر حيث احتجب به مصححة

هو كالملفظ من أصناف شئ. وهذا بما لا يصح في القياس لأنه ليس كل صنف من الحيوان يفتح كل صنف فلا العرس تفتح الحمل ولا الحمل يفتح البقر وإنما يكون هذا من بعض الحيوان حيث مثله ويقرب من خلقه كما يفتح «فرس الحمار» فخرج من بينها الفعل وفتح الدب الصنع فخرج من بينها السمع^(١) على أنه ليس يكون في شئ يخرج من بينها عضو من كل واحد منها كما يكون في الزرقعة عضو من العرس وعضو من الحمل بل يكون كالموسط بينها المخرج منها كالذي نراه في الفعل فإنك ترى رأسه وأذنيه وكفله وحوافره وسطاً بين هذه الأجزاء من العرس والحمار حتى شجبه^(٢) أيضاً كالمخرج من صهيل العرس وسبق الحمار فهذا دليل على أنه ليست البرزخ من لفتح أصناف شئ من الحيوان كما زعم الملاحمون بل هي خلق عجيب من خلق الله «دالة على قدرته التي لا يحصره شيء» وليعلم أنه خلق أصناف الحيوان كلها جميع ما شاء، منها في الأجزاء في أي شيء وتفرق بين ما شاء منها في أي شيء. فأما طون عبقها فاسفحة لها في ذلك فلأن مشأها ومرعأها كما يذكر أهل الخبرة بها غياطل دوات الأشجار شحنة داهة صولاً فهي تحتاج إلى طون العنق لتناول تلك الأشجار فتقوت من ثمارها

(نأمل خلفه العود) وشبهه بالأسنان في كثير من أعضائه أعني به الرأس والوجه والصدر والكبيرة وكذلك أحشائه أيضاً شبيهة بأحشاء الأسن كالذي وصفه أرسطو صليبي في كتاب الحيوان وشهد به كتب الطب من ذلك ثم ما حص به من الدهن والعطه التي بها يفهم عن حاله ما يريد منه ويقلل التأديب ويعرف ما يرمى إليه ويحكى كثيراً بما يرى الإنسان يفعله حتى أنه يقرب من خلق الإنسان في شمائله فمن التدبير في خلقه على ما هو عليه أن يكون غيره للإنسان فيعلم أنه من طينة الهشيم وسحقته إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب فلا يطفى ولا يتحرد عن حاله فإنه لو لا قصبة فضله لله بها في دهن والعقل كان كعض الهائم إلا

(١) السمع يسكن ولد الدب من الصنع فرس

(٢) في العروس شجبه الفعل والمعرب صورة كشجاجة بالضم هـ مصححة

أن في جسم المرء مفصلاً آخرى تعرف بينه وبين الأسنان كالخطم والشر واللسان المسل والشعر المحتل للبحس كله لكن هذا لم يكن مانع لفرد أن يلحق بالأسنان لو أعطى مثل ذهن الإنسان وعقله فالفاصل بينه وبين الإنسان الصلحة هي النقص في الدهن .

(وهو سمعت ما يتحدث به عن التنين) والسحاب قويه بقدر ان السحاب كالموكل به يحتطه حيث ما يقفه كما تحطف حمر المقاطيس الحديد حتى صار لا يطلع رأسه من بطن الأرض^(١) خوفاً من السحاب ولا يخرج في القوط إلا مرة إذا أصبحت السماء فلم يكن فيها تكفه من عجم فعم وكمل السحاب بالنسب برصده وغططه إذا وجده إلا ليدفع عن الدس صره . فإن قلت ولم خلق التنين أصلاً فما لمتخوف والترهب والسكول في موضع ذلك فهو كالسوط المعلق بحرف به أهل الرب أحياناً للتأديب ولوعظة .

(فكر في صروب من المعطن) جعلت في الهام لمصدقها بانطع والحلقة لا يعقل وروية فقد يقال أن لأبل تاكل الحيات ويمطش عطشاً شديداً ويمتدع من شرب الماء خوفاً من أن يدب في جسمه فيقتله . وإنه يقف على الغدير وهو مجهود عطشاً فيعج عجيلاً عالياً ولا يشرب منه حتى يعلم أن اسم قد تعرق وأن الذي أكل قد انهزم وحيتل يشرب .

فانظر إلى ما جعل في طباع هذه البهيمة من الصر على العظماء العالين خوفاً من الضر في الشرب وذلك مما لا يكاد الاسد يعاقل أن يضطه من نفسه

ومن الحديث المستفيض أن الثعلب إذا أعور العظم غاوت ومع قطه حتى يحسبه الطير ميتاً فإذا وقعت عليه لتنهش وثب عليها فأحدهم من أعان الثعلب العديم العقل والطق والروية هذه الحيلة إلا من كان توحه بتوحه المروق له من

(١) ها سقط دلفز تلك قوله من بطن الأرض من بطن ماء فهو ملازم لعمر البحر دلتها خوفاً من السحاب الخ وفي حياة الحيوان السير ضرب من الهيت كأكبر ما يكون منها وهو أيضاً نوع من نسك احد مصيحة

هذا وشبهه بربه لما كان السملط يصعب عن كثير مما يقوى عليه السبع من مساندة
صيد أعين بالدهر واعطاه والأحيال لعاشه ويتحدث عن الدفين أنه يلتصق
صيد الطير فتكون حيث في ذلك أن يأخذ السمك فيقننه وشدخه حتى يطفو على
ماء ثم يكمن تحته ويختر الماء الذي حوله حتى يسن شخصه فإذا وقعت الطير على
شباك الطافي وشب عنها فاصطادها. فانظر إلى هذه الحيلة الطبيعية كيف جعلت
صعاب في هذه سهبة لبعض المصلحة. وسمع ما يحدث به عن النمساح من أنه
يجمع فتات اللحم الذي يأكله في تصاعيف أسنانه وتزدرد فيتألف فيخرج إلى
الساحل فيفتح ماء كاليت يحمسه صخر مياً يسقط على فيه فيلغظ البدود فإذا عدم
أن ماء قد غط الطبق فيه على الطير وسلكه فذلو (الكافيت مكافأة النمساح)

(بأنل البقرة الحظيرة) هل تجد فيها بعضاً عما فيه صلاحها في طغنها ومن أسر
هذا التقدير والصواب في خلق مدرة إلا من التدمير القضم في صغير خلق وكثيره
ونرى الدر يتقى في عريفه فيتوالف الدرثان كما يسلم الرجل على صاحبه إذا لقيه
ويساله عن حاله وخبره.

(انظر إلى السمل) واحتشاده في جمع القوت واعداده لشتاء لأن تستر فيه فلا
تخرج فإنك ترى الجماعة منها إذا غبت الحب إلى بيتها ممرلة جماعة من الناس تغلق
عندما أو غيره بل ترى السمل في ذلك من احد والتشمير ما ليس للأسن مثله وتره
تعاون على سفل كما تعاون الدس على العمل ثم انه يحمي الحب فيقطعه كيلا
يسبب فيفسد عليه وإن أصابه ندى أخرجه فيزوره حتى يجف ثم لا يتعد الزبية إلا
في شبر من الأرض لكيلا ينقص عنها السيل فعرفها وكل هذا منه بلا عمل ولا
روية بل بحلقة خلق خلق عليها لمصلحته.

(انظر إلى هذا الذي يقال له الثبت^(١)) ويسمى بالسريانيه أسد اللباب وما
أعطى من حيلة والورق في طلب معاشه فإنك تراه حين يجس بالباب قد وقع

(١) ثبت صواب من العاكب مصطاد السمك وهو أصغر من السمكوت أحد حيوان البحر .

بالقرب منه تركه ملياً حتى كأنه ميت لا حراك له فإذا رأى الدياب قد اطمان وعمل عنه دب ديباً رقيقاً حتى يكون بحيث يناله وثبة ثم وثب عليه فأخذه واشتمل عليه بحمسه كله مخافة أن يشب الدياب فينحو منه وتجدد أيضاً ينحري فتمسز جناحيه وليضعها يديه ورجليه ليطل فعلها فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس بأنه قد ضعف واسترخى ثم يقبل عليه فيبر شقه ويمحي بذلك منه .

(فالما العكبوت) فإنه ينسج ذلك النسج شركاً لا يقدر على مثله الأدميون ومصيدة للدياب ثم يكمن في جوفه فإذا نشب فيه الدياب أحال عليه بلدغه ساعة بعد ساعة وعصمه ويجعله قوفاً فيتعشى بذلك فذلك يمكن صيد الكلاب واليهود وهذا يمكن صيد الأشراك والحائل فأنظر إلى هذه الدويبة الضعيفة كيف جعل في طعنها ما لا يبلغه الانسان إلا بالحيلة واستعمال الآلات فيها . ولا ترى بالشيء عندك أن تكون العبرة فيه بالدرة والملة وما أشبه ذلك فإن المعنى التيسر قد يتمثل بالمثل الحقير ولا يقصر به بذلك كما لا يقصر بالديار وهو من ذهب أن يوزن بمثل من الحجر والحديد .

(تأمل جسم الطائر وحلقته) فإنه حين قدر أن يكون طائراً في الجو ضعف جسمه وأدمج حلقه وانقصر به من القوائم الأربع على اثنين ومن الأصابع الخمس على الأربع ومن منفذي الزبل والبول على واحد مجمعها . ثم خلق ذا جوف محدود عس^(١) ليسهل عليه أن يخرق افواه كفيها توجه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات متان لينهض به للطيران وكفى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيقله ولما قدر أن يكون طعمه الحب واللحم يلعه بلعاً بلا مصغ نقص من خلقه الانسان وخلق له متفاز صلباً حامياً يتناول به طعمه فلا يتشجع من لفظ الحب ولا يتقصص من نهش اللحم ولما عديم الأسان وصار يزود الحب صحيحاً واللحم غريزاً أعين بفضل حرارة في الجوف يطحن له

(١) هكذا وفيه تحريم ولعل القاصداً ما حُرِّبَ هندوس محي ليسهل عليه التح وهو يستقيم للمع والخرقة كمية استدارة كل شيء كما في القاموس ١٤٨٨ صفحة

الطعم طمحا فيسعي عن التلذذ في موضعه واعتبر ذلك بأن عجم العبد وعبد
يخرج من أحواف الأسر صاحباً ويطحن في أجواف الطير حتى لا يرى له أثر .
ثم جعل أيضاً محبباً يرض ولا يلد ولادة لكيلا تنقل عن الطير فإنه لو
كانت الفراخ تحل في حوته ولتكت فيه حتى تستحكم وتكبر لأثقلته وعاقته عن
المهوض والطير ن .

أولاً ترى كيف يوجد كل شيء من خلقه مشاكلاً للأمر الذي قدر أن يكون
عليه لم صار الطير المسحر السابح في هذا الخو يقعد عن الطيران فيحصه أسبوعاً
وسبوعين ومن الطير من يلفظ الطعام بعد أن يستقر في حوصته فيعدو به فراحه
لأي معنى يختص هذه مشقة وليس بدني روية ولا تكبير في عاقبة ولا يؤمل في
مراحه ما يؤمل الإنسان في ولده من العز والبر والرفد وبذ الذكر فهذا من عمله
يشهد بأنه معصوف على مراحه لعنة لا يعرفها هو ولا يفكر فيها وهي دوماً السبل
ومقامه .

(انظر إلى الدجاجة) كيف تبيع لحصى البيض والتفريخ وليس لها بصر
عجم ولا وكر قط بل تسعت لذلك عنة فتبيع وتقاوي وتبيع الديك بمسها وتفتح
من الطعام حتى يفتح هذا البيض ويحصه وتخرج فلم كان ذلك منها إلا لإقامة
السل ولا روية لها ولا فكر في عاقبة

(فكر في خلق الببغاء) ود فيه الملح لأصفر الحشاير والماء الأبيض الرقيق
نعضه لسبه المرح ونعضه ليعتدي به إلى أن تتحاب به الببغاء وما في ذلك
من لتدبير فوبه لما كان تشو المرح في تلك الفترة المستحضرة التي لا مساع لشيء
إنها جعل معه في خوف الببغاء من العداء ما يكفي به إلى خروجه منها كس
يخش في حصص حصص لا يوصل إلى ما فيه فيجعل معه من الموت ما يكفي به
إلى خروجه منه

(فكر في حوصته الطائر) وما قدرته له فإن مسلك لطعم إلى يفضله صيق
لا يبعد فيه نعض إلا قليلاً قليلاً فهو كان الطائر لا يلتفت حبة تامة حتى تصل

الأولى إلى القاصصة لطب دنت عليه فعنى كان يسوق صغره وإنما تحمسه احبالا
لشدة الخدر فجعلت له الخوصلة كالمحلاة المعلقة أمامه ليوعى ما أثرك فيها من
الطعم سرعة ثم ينفذ إلى القاصصة عن مهل ، وفي الخوصلة أيضاً خصلة أخرى
فمن من الطير ما يحتاج أن يرق فواحه فيكون رده لطعم من قرب أسهل عليه .

فإن كان الاختلاف في الألوان والأشكال في الطير إما يكون من قبل امتزاج
الأحلاط واختلاف مصادرهما بامسرح والاصصال . فهذا البونقي الذي سره في
الظوموس والتدرج والتدرج على استوره ومقاربة كحمو ، يخط بالأفلام كيف يأتي به
الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف .

تأمل ريش الطير كيف هو حيث تراه مسرحاً كسج الثوب من سدوك دقيق
قد ألف بعضه إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط والشعرة إلى الشعرة ثم ترى
ذلك السج إذا مددته يفتح قليلاً ولا ينشق ليند حله الريح قبيل الطائر إذا طار
وترى وسط الريشة عمود غليظاً متيناً قد نسج عليه ذلك كهيشة الشعر ليسكنه
بصلابه وهي قصبة نقي يكون في وسط الريشة وهو مع ذلك أحوب ليحف عن
الطائر فلا يعوقه عن الطيران .

هل رأيت هذا الطائر الطويل الساقين وعرفت المنفعة له في طول ساقيه فإنه
يرعى أكثر ذلك في صحصح فترة يركز عن تبيت الساقين كأنه ربة فوق مرقب
يسأمل ما يذب في الماء فإذا رأى شيئاً من حذته سقط حفاً رقيقاً حتى يسأوله . وهو
كأن لصير القادمتين كأن حين يحيط بهو الصيد ليأخذه بشق بطنه الماء فيشوره
ويدمر منه الصيد فيغرق عنه فخلق له ذلك العمودان يدرك بهما حذته ولا يفسد
عليه مقلته

تأمل ضرباً من السدبر في حلق الطير فإليك تحد كل طائر طويل الساقين
طويل العنق وذلك ليسأول طعامه من الأرض ولو كان طويل الساقين قصير العنق
لما استطاع أن يسأول شيئاً من الأرض وربما أعين مع حول العنق يسفل سقر
ليردد المطاب عليه بسهولة وله إمكانية ألا ترى أنك لا تعشش شيئاً من الخلق إلا
وجدته على غاية الصواب والحكمة .

(أنظر إلى العصافير) كيف يطلب أكلها ،أنهار كله فلا هي تعقبه ولا هي
تحميه مجموعاً معداً بل تدله بالحركة والطلب وكذلك تحدد الرزق كله فسبحان الذي
قدره كيف فرقه وبعده ولم يجعله مما لا يقدر عليه إذ جعل المخلوق الحاجة إليه ولم
يجعله مبدولاً ميتال بطوب إذا كان لا صلاح لمخلوق في ذلك فإنه لو كان موحداً
مجموعاً معداً كانت الشهية مستكبة عليه ولا تطلع عنه حتى تشم فتهلك وكان
للمس سيصيرون بالمرأع والكيفية إلى غاية الأثر حتى يكثر انبساط وتظهر
المفوحش أعلمت ما طعم هذه الأصناف من الطير التي لا تحرح إلا ليلاً كمثل
النوم والحفاش وأفانم فإنه يقال أن معاشها في هذا الخوف من الغوص والفرش
وأشياء الخراف واليعاسيب وغيرها وذلك أن هذه لصروب مشوفة في أحوالها تجلومها
موضع واعتبر ذلك ذلك إذا وضعت السراج بالنيل في صبح أو عروضة دار اجتماع
عليه من هذه اللصروب شيء كثير فمن أين يأتي ذلك كله إلا من المغرب

فإن قيل إنه يأتي من الصحارى والبحر رى قيل له كيف يوافق تلك السرعة
من موضع بعيد وكيف ينصر من ذئب السراج في دار محبوه بالسور فيقصد
إليه مع أن هذه اللصروب ترى عيانياً تنهات عن السراج من قرب فهذا ذلك على
أنها مشوفة في كل موضع من الجو وهذه الأصناف من طير تلمسها إذا حركت
فتتقوت بها فأنصر كيف وجه الرزق هذه الطير التي لا تحرح إلا بالليل من هذه
لصروب مشوفة في الجو وأعرف مع ذلك معنى في خلق الله تعالى هذه اللصروب
لأن عيسى عليه السلام طرد أنها فصل لا معنى لها خلق الحفاش حيلة عجيبة بين
حنفة الطير ودوات الأربع بل هي إلى دوات الأربع أقرب منه ذو ديين ناشترتين
وأسان ووبر وهو يخبص ويحمل ويند أولاداً ويرضع ويسول ويخني إذا مشى على
أربع وكل هذا خلاف صفة الطير وهو أيضاً مما يخرج بالليل ويتقوت مما يسري في
جو من الفرائش وما أشبهه.

وقد قال قائلون لا طعم للفرائش وما أشبهه وقال قائلون لا طعم (المفوحش)
وب غذائه من السيم وحده وهذا ينكر من وجهين أحدهما خروج ما يخرج من
الثقل والبول فإن هذا لا يكون إلا من طعم. والأخرى أنه ذو أسنان ولو كان لا

يضعف لم يكن بالأسان معنى وليس من الخلفة شيء لا طعم له

فإذا المارب فيه لموصوفة في كتب طب حتى أن رباه يدخل في بعض
الاحكام ومن أعظم الأرب فيه حلقته العنقه الدالة على قدرة الحلق حتى تدؤه
وتصرفها في كل ما شاء لغروب من المصلحة.

تحدث رجل صدوق عن هذا الطير الصغير الذي يقال له ابن عزة هو الدحس
أنه قد كان عشت في بعض الشجرة فطر إلى حية عظيمة قد أكلت نحو عشتها
شحية فافرة فاما لتتلعه فيها هو يتقلب ويضطرب في صلب الحيلة للنحاة من إذ
وعد حسكة فحملها وألفها في هم الحية فلم ترل تلسوي وتقلب بل أن ماتت
أفراحت لو لم تحدث به الحديث أكان يحظر مالك أن يكون من حسكة مثل هذه
المقعة العظيمة فاعتبر به في كثير من الأشياء يكون فيها منافع لا يعرف إلا بعد
الحادث يحدث والخبر يسمع.

(أنظر إلى النحل) واحتشده في صفة العسل وهنة الطيور بسمة من
عسل ما يصلح لصنع وما يرى في ذلك من دقائق العظمة التي وصفها المتكلمون
في الطعام حيث إذا تأملت العمل رأيه عجباً لطيفاً وإذا نظرت إلى معمول وحدته
شريعاً عجباً موفقه من الناس وإذا رجعت إلى العامل وحدته عجباً حلاً نفسه
فصلاً عما سوى ذلك فهي هذا أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هذه
الصناعة ليس النحل بل لذي طعمه عليها وسحره فيها لمصلحة الانسان

(أنظر إلى هذا الحرار) ما أصعبه وأقوى فعله حيث إذا تأملت حلقته رأيه
كأصعب الأشياء وإذا أردت عبثه نحو بلدة من سدن لم يستطيع أحد أن
يحميها منه إلا ترى منك من فوق الأرض لو جمع حبه ورحله ليحمي بلدة من
الحرار لم يقدر على ذلك أميس ذلك من الدلائل على قدرة الخالق انه بعث أصعب
حلقه على أقوى خلقه فلا يستطيع دفعه

ثم أنظر إليه كيف يساب من وجه الأرض من السيل فبعث السهل
والجبل والسر والحصر حتى يسر نور الشمس بكثرتة فلو كان هذا مما يصنع

دأب ي كصعة البشر من كانت تجمع منه مثل هذه الكثرة وفي كم من سه كدت
ترفع فاستدل بذلك على القدرة التي لا يزهو شيء ولا يكر عليها.

(نأمل حلو السمك) ومشاكلته للأمر الذي قد أن يكون عليه فإنه خلق
غير ذي قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء وخلق غير ذي رية لأنه لا
يستطيع أن يتنفس وهو مغمس في شحذ وجعلت له مكان القوائم أجنحة شديدة
بصيرت بها من حانبه كي يصير الولي بالمحاذيف من حاسي السفينة وكسي جسمه
حجوداً متناً متداخلة كتداخل الدروع والحواشئ كثيفة من الألفات وأغبر بفصل
حس في الشم لأن مصره ضعيف والله يحجبه فصار ينتم الطعام من بعد بعيد
فيتمتع به ولا فكيف يعلم به وبموصعه وقد ذكر لوسطا طليس أن سبي فيه إلى
صدا حيه صاف فهو بعد له فيه ويرسله من صاحبه فيتروح إلى ذلك كما يتروح
غيره من الحيوانات التي تنسم هذه النسيم.

فكر في كثرة سمك السمك وما يخص به من ذلك فإنك ترى في جوف
السمكة الواحدة من سمك ما لا يحصى عدده كثرة وعدة في ذلك أن يتسع لم
معدني به من أصناف الخبائات بين أكثرها يأكل السمك حتى السباع أيضاً يبتل
ترى في حداث الأحدم عذكمة على سمه الصافي تصيد السمك فإذا مر بها جعلته
سم كائن سمك يأكل السمك ويظهر تأكل السمك وليس يأكلون السمك
والسمك يأكل السمك وكذا في البحر دوات لا طعام إلا السمك فتدبيره أن
يكون على سم هو عليه من الكثرة.

وإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم الخلقين فانظر إلى سم
في البحار من صرور السمك ودواب الماء والأصناف التي لا تحصى كثرة ولا
يعرف ما فيها إلا الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث كما قد يقال في
صمم القرقر أنه إنما عرف بأن كسرة كدت تحول عن شاعلي البحر بصور فوجدت
شيئاً من الذي يسمى الخمرور فأدركته فباعه فحطه بدعه فطر الناس إلى
حبه فالحمد لله صعباً لفقر وأشياء هذا مما يقع الناس عليه حالاً بعد حال.

(انصرف الآن إلى خلق الإنسان) وما فيه من الحكمة وما فيه من الدلالة على تدبير والعقل فأول ذلك ما يدبر فيه من الخير من الرحم حين لا حيلة عنه في تلمس غذاء ولا دفع أدى إليه يجري إليه من دم أمه ما يعذوه كما يغدو الماء البت فلا يزال ذلك غذاءه حتى إذا كمل خلقه و استحكم بدنه وقوي أديمه على مباشرة أهوه وبصره على ملاقاته الضوء هاج الطلق بألمه ولزغحه أشد إزعاج وأعنفه حتى يولد فإذا ود صرف ذلك الذي كان يعذوه من دم أمه إلى ثديها فاعطت إلى صرب آخر من العده هو أشد موافقة للموود من الدم أعني اللبن فهو فيه يس في وقت حاجته إليه فيه حين يكون فقد تلمس وحرث شغفه ليرصاع فيجد ثدي أمه كالادونين المعشيين حاجته فلا يزال يقتدي باللبن ب دم وحب سدان رفيق الامعاء حتى إذا تحرك واحتاج إلى غذاء فيه صلاة لبشده عظمه وخمعه صلبت عنه الصواحين التي هي الأسن ليمضج بها الطعام فيلين عليه ويسهل أساعته فلا يزال كذلك حتى يدرك فإذا أمرك وكان ذكراً طلع شعر في وجهه وكان ذلك هو علامة الذكر وعمر لرحل الذي يخرج به من حبل الصبي وخسه السوء وأن كنت أنتى هي وجهها شب من الشعر لتبقى لها المهجة والبصارة التي تحرك لرحال لها فيه من دوام السبل.

(وفكر الآن في أمر الإنسان) وما يُدبر به في هذه الأحوال المستتفة هل ترى منه يمكن أن يكون عليه الإهمال أمراً لو لم يمر إليه ذلك لدم وهو في الرحم لم يكن سيديوي ويحبب كما يحب النساء إذا فقد الماء ولو لم يرعجه أشخاص عنه استحكاهم ألم يكن يستفي في الرحم كاللؤود في الأرض ولو لم يوافه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً أو يعفني بعداء لا يلائمه ولا يصلح عليه بدنه ولو لم تطلع له الأسن في وقته ألم يكن سيضع عليه المصغ للطعم وأساعته أو يفهم على الرصاع ولا يشده بدنه ولا يصلح لعمل ثم شغل أمه نفسه عن تربيته ولد غيره ولو لم يكن شعر يخرج في وجهه في وقته ألم يكن سيفي في هيئة الصبيد والنساء فلا يرى له جلالة ولا هيئة ولا وقار من الذي كان يرصده حتى يوافيه بكل شيء من هذه المألوف في وقته إلا الذي أنشأ خلقاً بعد إذ لم يكن ثم تركل مصلحته بعد إذ

كأن ولئن كان الإهمال يأتي مثل هذا التدبير فقد نجد في انقياس أن يكون العمدة والتدبير يأتي بالخطأ والمحال لأنه ضد الإهمال وهذا خلف من القول.

(فكر في أمر الإنسان في باب آخر) وهو ولادته حين يولد عبياً غير ذي عقل ومهم فيه لو كان يولد عاقلاً هاهنا لأنكر العالم عند ولادته حتى يبقى حيران ثائه العقل إذا رأى ما لا يعرفه وورد عن ما لم ير مثله فاعتبر ذلك بأن من سبي من بلد إلى بلد وهو متحلك عاقل يكون كالواله الخبير ولا يتشرع في تعليم الكلام وقول الأدب كما يتشرع الذي ينشأ صغيراً. ثم لو كان يولد عاقلاً وجد غضاصة أن يرى نفسه محمولاً ومرضياً ومعضاً بالحرق ومسحى في المهد على أنه لا يستعنى عن هذا كله لرفقة بده وخطوبته حين يولد ثم كان لا يوجد له من الحلاوة والموقع في القنوب ومن الرحمة والفرح ما يوجد للطفل فصار المولود يدخل العالم ضياً عاقلاً عباً فيه البس فلفظ الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتريد في المعرفة قليلاً قليلاً وشيئاً بعد شيء حتى يألف الأشياء وينمو عليها فيخرج من حد التأمل لها والخيرة إلى التصرف في الأمور والأصطراف في المعاش.

وفي هذا وجوه أخر فإنه لو كان يولد ذم طعقل مستقلاً نفسه لذهب موضع تربية الأولاد وما دبر أن يكون للوالدين في الاشتغال به من المصلحة وما توجب التربية للأباء عن البنين من المكافأة بالبر والعطف عند حاجتهم إلى ذلك منهم ثم كان الأولاد لا يلقون آباءهم ولا الأماء يلقون أبناءهم لأنه كان الأولاد يستغوب عن تربية الأماء وحياتهم فيتعرفون عنهم حين يولدون حتى لا يعرف الرجل أباه ولا أمه ولا يعرفه أبوه وأمه ولا يتبحر من تكاثر أمه وأخته إن كان لا يعرفها وأقل ما يكون من ذلك أن يخرج من بطن أمه وهو يغفل فيرى منها ما يحل له ولا يحس به أن يراه.

أو لا يرى كيف أنهم كل شيء من احتشة على عاية الصواب وتكب فيه الخطأ دقيقة وجليلة. ولخير كتب الطب والطبيع أن الحنيز يخلق من ماء الذكر والأنثى جميعاً فالدكر يقتف ماءه في رحم الأنثى والأنثى تقتف ماءها في رحمها لا بعدوها ثم يختلطان في الرحم فيكون منها الجنين بذن الله وقدرته

واظهر كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعاً على ما يشاكل ذلك فجعلت للذكر إذا كان يحتاج أن يفلح مائه في غيره آلة ناشزة تمتد حتى توصل البطنة إلى الرحم وجعلت للأنثى إذا احتاجت إلى أن تشمل عمل المائتين جميعاً وتعمل التولد حتى يستحكم وعاء قعيراً يصلح لذلك .

فكر في أعضاء البدن أجمع وتقدير كل عضو من الأوتار فيها واليدان للعلاج والرحلان للسمع والعيان للاعتداء والأذان للسمع والألف للشم والعم للاعتداء والمعدة للهضم والكبد التحليص والمائدة لفض الفضول والأوعية لحملها والفرج لإقامة النسل وكذلك جميع الأعضاء إذا تأملتها وجدت الكل من قد قدر على صواب وحكمة .

فإن رعبت إن هذا من فعل الطبيعة سألتك عن هذه الطبيعة أي شيء له علم وقدرة على هذه الأفعال أم ليست كذلك فإن أوجبت لها العلم والقدرة فما امتاعك من إثبات الخالق فإن هذه هي صفة الخلق . فإن رعبت أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم وعمد فهو محذور لأن أفعالها ما قد ترى من الصواب والحكمة . فعلم أن هذا العمل للخالق العظيم وأن الذي سميت طبيعة هي سنة سببه من خلقته الجارية على ما أجراها عليه^(١) .

(فكر في وصول الغذاء إلى البدن) وما فيه من التدبير فإن الطعام يصير إلى المعدة فتطحنه المعدة وتبعث مصفوه إلى الكبد في عروق دقاق وأشجة بينها قد جعلت كالصفاء للغذاء لكيلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فيكوثها وذلك أن الكبد رقيقة لا تحتمل العنف ثم أن الكبد ثقيلة دماً وتعمده إلى البدن كله في جهاز مهية لذلك بمنزلة المجاري التي تبا للهاء حتى يطرد في الأرض كلها وينفذ ما يخرج من الحيت والفضول إلى مغايص قد أعدت لذلك فيما كان منه من جنس المرة

(١) هذا في المائتين ما سمى والطبيعة على قولك تعني إما مفعولاً أو مفعولاً غير لزوم الماعل لزوم أن تجعلها متعددة لمعاملاتها وهذا كقولنا في الشاري . وقد أريدت مفعولاً كذلك مفعول فاعل ما سكر أن يكون الله . وإن قلت أن الطبيعة والطبيع لم ير إلا أثبت محال وفلت بالبين قدس

تصغره أخرى إلى الفواره التي هي مقرونة بالكبد وما كان من حسن السوداء
أجري إلى الطحال وما كان من بهلة والرطوبة أجري إلى المثانة [تأمل حكمه
التدبير] في تدبير تركيب البدن ووضع هذه الأعضاء مواضعها وأعداد هذه الأعضاء
فيه لتجمل تلك القصور ولا تنتشر في البدن فشققه ولو أحدث عثلاً صغيراً من
شبه لو محاسن أو شمع فأردت أن تجعله كبيراً من كان يكثر ذلك إلا بأن تكسره
وتصوغه من برأس صياغة أخرى

أفلا ترى جسم البهي كيف يمتو بجميع أعضائه وهو ثابت على شكله
وعينه وهيئة لا يتريد ولا يتغير وأصبع من هذا مصوره في الرحم حيث لا تراه
عبر ولا تاله يد يخرج سويّاً مستويّاً بجميع ما به قوامه وصلاحه من الأضواء
والخوارج وبعو من واحد من إلى ما في تركيب أعضائه من العظام واللحم والشمع
والطح والعضب والعروق والعصاريب من دقائق التركيب والتقدير والحكمة. "نظر
بل ما حص به لاسان في خلقه تشريفاً وتعصياً له على الهديم فإنه حمق ينتصب
فائماً ويستوي حالاً ليسفل الأشياء يديه وحورجه ويحكمه العلاج والعمل فيها
ولو كان مكتوباً على وجهه كدوات الأربع لما استطاع أن يعمل شيئاً من الأعمال
وهذا المعنى صار الاسناد اسمه باليونانية مشتقاً من النظر إلى العلوكي قال قائلون
لو من تأمل الأمور العلوية كما قال الأملطون.

أنظر إلى هذه الحواس التي بها يشرف النورس على الأشياء كيف جعلت في
لرأس كانهما يبع فوق الدرة ليتشكر من مطاعة الأشياء ولم يجعل في لأعضاء التي
تنتهي كاليد والرجل من مرض ثلاث التي تصيبها من مباشرة العمل والحركة
ولا في الأعضاء التي تحي وسط البدن كالقلب والظهر فيعسر نظيفها واطلاعيها نحو
لأشياء فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء مواضع كان الرأس أهما المواضع
ها. وقد أحسن في وصف الرأس بعض الحكماء فقال هو صومعة الحواس. من
جعل الحواس حساً إلا من جعل المحسوسات مثل ذلك قدرها حساً تلقى حساً
لكيلا تقوت الحواس شيء من المحسوسات.

فإن كنت فاعل في لأحسام محسوسات أخرى ليس تلقاها حواس لتدركها

(فدنا) محال أن يكون محسوسات ليس تلقاها حواس ندركها لأب كتاب تكون فضلاً لا معنى له وليس في الخلقة شيء لا معنى له كالذي حكمت به الحكماء وشهدت عليه المحنة . لم خلق البصر إلا ليدرك الألوان والأشكال والأصواء . ولم خلق السمع إلا ليدرك الأصوات ولو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها هل كانت تكون في الألوان منفعة ولو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها هل كان في الأصوات لرب وكذلك سائر الحواس ثم هذه كلها أيضاً ترجع متكافئة فإنه لو كان بصر ولم يكن ألوان لم يكن للبصر معنى ولو كان سمع ولم يكن أصوات لم يكن للسمع موضع .

انظر كيف قدر بعضها تلقاء بعض فجعل لكل حاسة محسوساً تعمل فيه ولكل محسوس حاسة تدركه . وفكر مع هذا في أشياء جعلت متوسطة بين الحواس والمحسوسات لا يتم الخسر إلا بها كمثل الصياء والنفاء فإنه لو لم يكن صياء يظهر اللون للبصر لم يكن البصر يدرك اللون ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت فهل يخفى على من صح نظره أن مثل هذا الذي وصفنا من تهية الحواس والمحسوسات بعضها تلقاء بعض وتهية أشياء أخرى بها تتم الحواس لا يكون إلا بعمد وتقدير .

فكر في الذي عدم البصر من الناس وما يناله من الخلل في أموره فإنه لا يبصر موضع قدمه ولا يعرف ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان ولا بين المنظر الحسن والقبيح ولا يميز بحفرة أن هجم عليها ولا بعدد أن يبعد ولا يعرف أن أمراً إليه سيف ولا يكون له سبيل إلى تعلم شيء من هذه الصناعات كالنجارة والكتابة والصباغة حتى لو لا بقاء ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقى . وكذلك من عدم السمع قد يخل في أمور كثيرة فإنه يفقد روح الخاطبة والمحاضرة ويعدم لذة الأصوات والنفود الشجية والمطربة وتعظم المؤنة على الناس حتى يتبرموا به ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم حتى يكون كالعائن وهو شاهد وكاليت وهو حي .

فأما من عدم العقل فإنه يلحق بمنزلة البهائم بل يجهل كثيراً مما تهتدي إليه

اليهائم أملاً ترى كيف صارت هذه الجوارح والعقل وسائر الحلال التي بها صلاح الإنسان والتي لو فقد منها شيء لعظم ما يناله في ذلك من الخلل فيوافق في خلقه على التمام حتى لا يفقد منها شيئاً ولم كان ذلك لولا أن خلقه بمعد وتدبير.

والقول المجهل أن الصانع جل ثناؤه إذا ثبت أنه حكيم عدل زالت عنه التهمة فيها فبعبه إذ هو أعرف بمصالح الإنسان ومصالحته وعواقب أموره وإن الصانع حل عن التمثيل كتطيل خلق مأمون الخطأ يعالج بما فيه مضيء وألم ولا ينسب إلى مساواة قلبه ولا إلى جورره واضرارره بالعليل ولا إلى الخطأ^(١).

فإن قلت ولم صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح حتى يناله مثل هذا الخلل قلنا للتأديب والموعظة للواقع ذلك به وأخيره بسببه كما قد يؤدب ملوك الأرض بأشياء التشكيل والموعظة فلا ينكر ذلك عليهم بل بمعد ويستصوب من تدبيرهم ثم أن الذين هم هذه البلاءا من الثواب في الآخرة إن حصروا وشكروا وأثابوا ما يستصغرون معه ما يبالغ منها حتى أنهم لو غيروا بعد البعث لاختاروا أن يردوا إلى البلاء ليزدانبوا من الثواب.

(فكر في الأعضاء) التي خلقت أفراداً ولزواجاً وما في ذلك من الصواب والحكمة فالرأس مما خلق فرداً ولم يكن غير أن يكون أكثر من ذلك ألا ترى أنه لو أصيب إلى رأس الإنسان رأس آخر كان ثقلاً عليه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد. ثم كان اللسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان فإن تكلم من أحدهما كان الآخر معطلاً لا أرب فيه وإن تكلم منها جميعاً بكلام واحد كان أحدهما فضلاً وإن تكلم من أحدهما بغير الذي يتكلم به من الآخر لم يدرك السامع بأي ذلك يأخذوا أشباه هذا من الاختلاط. واليدان مما خلق لأرواحاً ولم يكن للإنسان غير أن يكون له يد واحدة لأن ذلك يحمل به فيها يعالج من الأشياء. ألا ترى أن النحل والبناء لو شلت إحدى يديه لم يستطع أن يعالج

(١) من قوله والعقل المجهل إلى هنا مشد في غاشق ويعبر أنه من الأمر بعد قوله بمعد وتدبير.

صناعته فإن تكلف ذلك لم يحكمه ولم يبلغ به ما بلغه إذا كان له يدان يتعاونان على العمل.

(فكر في الصوت) ونبهة الآلة والكلام وانتظامه والحروف وما هي لها من المخرج وأعينت به من الهواء وكيف جعل شيء من الآلات لما خلق له^(١) فكر في نبهة آلات الصوت والكلام في الإنسان صالحجرة كالأنبوب لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والغم ألا ترى أنه من سقطت أسنانه لم يقم السير ومن تقضب شفته لم يصح الفاء ومن ثقل لسانه لم ينصح الراء مما أحسن ما مثل الأولون مخرج الصوت بالمرمل الأعظم فشبهوا الحجرة بقصبة المرمار وشبهوا الرئة بالرق الذي ينفخ به من تحته ليدخله الريح وشبهوا العضلات التي تقبض على الرئة لخروج الصوت من الحجرة بالأكف الذي تقبض على الرق حتى تحري الريح في المرمار وشبهوا الشفتين والأسنان التي تصوغ الصوت حروفاً وبعاً بالأصابع التي تختلف على فم المرمار بهصوح صفيره الخاف غير أنه وإن كان مخرج الصوت يشبه المرمار للدلالة والتعريف فإن المرمار بالحقيقة هو المثلث مخرج الصوت لأن المرمار صناعي والصوت طبيعي والصناعة هي التي تحكم الطبيعة. ولكنه لما كانت الصناعة أظهر وأعرف عند العامة من الطبيعة صارت أفعال الطبيعة تمثل بأفعال الصناعة ليفهم ويوقف عليها فإذا كانت الصناعة هي التي تتعجب من اللطف والحكمة فيها يحكي الطبيعة فبالحري أن يتعجب من الطبيعة ولطف أفعالها ولئن كان الإهمال يضعف عما تأتي به الصناعة فهو عما تأتي به الطبيعة أضعف قد أنبأنا عما في هذه الأعضاء من الغناء في صفة الكلام وإقامة الحروف. وفيها مع الذي ذكرنا ما أرب أخرى وهي الحجرة بسلك هذا التسيم إلى الرئة فيروج عن الفؤاد هذا النفس الدائم المتتابع وباللسان تذوق الطعوم فيميز بينها ويعرف كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على أساغة الطعام والشراب وبالأسنان يهضم الطعام قبلين ويسهل ابتلاعه وهي بعد كذلك للشفتين تمسكها وتدعمهما

(١) من قوله فكر في الصوت إلى هنا تمت في الموضع أيضاً

من داخل النعم فاعلم ذلك أنك ترى من سقطت أسنانه مستوحى شعبة مصعربها
 وباشعربين ينزشف الشرب حتى يكون الذي يدخل فيه بقصد وقدر لا يتج نجا
 فيعصر به الشرب ويسكا في الخوف ثم هما بعد كاللب أو كالطبق عن النعم بفتحها
 الإنسان إذا شاء وبطقها إذا شاء وبها حس مطر النعم ألا ترى الذي قطع شعبه
 فتح منظره لينة

فصا وصفا من هذا بيان أن كل واحد من هذه الأعضاء تصرف إلى وحيه
 من المارب كما تصرف الأداة الواحدة إلى أعمال شتى وذلك كالنفس يستعمل في
 عمل الحلاوة والحقر والعدا وغيرها من الأعمال وكذلك الشعبة تصلح للتفصيل
 وللمص الماء وإقامة بعض الحروف وجمع الحارج ودفعها وتغير ذلك

(لما رأيت الدماغ) إذا كثف عنه كيف تجده قد لف بحجب بعضها فوق
 بعض لتصوره عن الأخر من والسكة من أن يضطرب ثم أظفت عليه الجمجمة
 عملة البهية لئلا حذ الصدمة والمصكة تقع بالرأس ثم حلت الجمجمة بالحيد
 والشعر الذي هو فرو. الرأس ليسترد من حرط الحر والبرد فمن خص الدماغ
 به. المحصى وقدره هذا التقدير إلا من حلفه فعلم أنه يسوع الحس والمستحق
 لكل هذه الحيفة بمثلتها من البعد وحمل العقل فيه.

من جعل الحس على العبر كالغشاء والاشفاق كالاشراع والولحها في هذا
 نعار وأطلها بالحجاج وما عليه من الشعر.

من عيب الفؤاد في حروف صدر وكسه المدوخة التي هي عشوة وحصبه
 ما جوارح وما عنيها من اللحم والعصب بقي ولا يثقل وجعل شغافه في حق بصوته
 وأمره على الجوارح والجوارح فتاليه ينتهي ما يؤذيه بل من جعله مسكناً للجوارح
 بروح. من جعل في الحلق متقذين أحدهما لفصوت وهو الحنقوم والواصل إلى الرئة
 والآخر للعداء وهو المريء والواصل إلى المعدة وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام
 أن يصل الرئة فيبطل به من جعل الرئة مبروكة للعوذ لا تغتر ولا تحل لتكيداً
 تنحصر الحرارة في الفؤاد فيؤذي إلى التلف.

من جعل شاعد البول والمائط أشراجاً يضمها ويضبطها لكيلا تجري جرياً
دائماً فيفسد على الانسان عيشه وكم عسى أن يحصى المحصى من هذا بل الذي لا
يحصى منه أكثر.

لم صارت المعدة عصبانية شديدة إلا أنها قدرت لهضم الطعام الغليظ ولم
صارت الكبد رقيقة ناعمة أنها قدرت لفسول صمو اللطيف من الغذاء والمضم
وعمل هو أنظف من عمل المعدة.

لم صار رخ الرقيق محصاً في أمابب العضم إلا لتحيطة وتصويه لم صار الدم
السيال محصوراً في العروق منزلة الماء في الطروف إلا لتصفية فلا يعض لم صار
الأظفار على أطراف الأصابع إلا وقاية لها ومعونة على العمل لم صار داخل الأذن
ملتزماً كهية اللؤلؤ إلا ليطرد فيه الصوت حتى يتهي فيه إلى السمع ولتكر حمة
الريح فلا تنكأ في السمع كما قال آخرون . لم حمل الانسان على فخذه هذا اللحم
الوثير إلا ليقب من الأرض فلا يآلم من الجلوس عليها كي يآلم من قد حمل جسمه
وقل خمه إذا لم يحمل بينه وبين الأرض حائل .

من جعل الانسان ذكراً وأنثى إلا من خلقه متناسلاً . من جعله متناسلاً إلا
من جعله ميتاً . من أعطاه آلات العمل إلا من جعله عاملاً من جعله عاملاً إلا من
جعله محتاجاً من صرعه بالحاجة إلا من توكل بتفويجه من خصه بالمهم إلا من
أوجب له الجراء . من وهب له الخيلة إلا من ملكه الخلق إلا من ألزمه
الحاجة له الجراء . من وهب له الخيلة إلا من ملكه الخلق إلا من ألزمه
الحاجة من يكفيه ما لا تبلغه حيلته إلا من لا يبلغ مدى شكره ثبارك وتعالى لا
تحصى نعمه . ذكر أرسطو طاليس في صنعة خلق الانسان ان في الفؤاد نقباً مواجهة
نحو القلب التي في الرئة سواء ليحمل الريح من الرئة فتروح عن الفؤاد حتى أنه لو
اختلف القلب وترايل بعضها عن بعض لما وصلت الريح إلى الفؤاد فكان في ذلك
هلاك الانسان . فاستجيز ذو فكرة وروية أن يزعم أن مثل هذا يكون بالإهمال أولاً
بعد شاعداً من قلبه يزعه عن هذا القول . لو دأبت فرداً من مصراعي باب فيه
كلوب أكنث ثورهم أنه كان هكذا فلا معنى بل كنت سنتعلم أنه مصروع تلقاء فرد

أحر فيه دمه ليكون في اجتماعهم صرب من المصلحة وهكذا. نجد الذكر من الحيوان
 ثمة مرد من روح قد جعل له فرح مهيب. نلقاه فرح الأنثى يلتقيان لما فيه دوام
 النسل وبنائه. فتأ وحية لأفيوروس وأشياعه حين عمت فلولهم عن هذه الحفلة
 العجينة حتى أمكروا المدر والعد فيها. لو كان مرج لرحل مسترخياً أبداً كيف
 ذاب يصل إلى لمر الرحم حتى يفر الطقة فيه. ولو كان معطاً أبداً كم يكون
 لرحل يفسد في العروش ويمشي بين الناس وشيء شاخص أمامه ثم كان في ذلك
 مع صبح المطر تحريك الشهوة في كل وقت من النساء والرجال جميعاً يدعوهم
 تحريكها إلى الناصعة وهذا على الأولين يؤذيهم إلى الخلاك فقدر أن يكون مسترخياً
 في أكثر ذلك كيلا يبدو للبصر في كل وقت ولا يكون على لرحل فيه مؤنة وجعلت
 فيه قوة الانقباض عند الحاجة إلى ذلك لما فيه من دوام النسل وبقائه. أليس من
 حسن التدبير في النساء أن يكون الحلاء في أسر موضع من لدار فهكذا نجد المبعد
 لها للحلاء من الإنسان في أسر موضع منه فإنه ليس درزاً من تحفه ولا ناشراً
 من يديه بل هو معيب في موضع عامض من اللبد يلتقي عليه الفخذان بما عليها
 من اللحم فتوازيانه هذا، حصرت الحاجة إلى الحلاء وحلست لها الإنسان تلك
 خلية ألفى ذلك الموضوع منه متصفاً متهاً لانحدار العمل

(فكر في هذه الطوائف) التي خلقت للإنسان كيف جعلت، الإنسان منها
 حديداً لمقطع الطعام وهكذا وجعلت الأضراس عراضاً لرضه ومضغه فلم ينقص
 واحد من الصنفين إذا كان يحتاج إليها جميعاً.

[تأمل التدبير في خلق الشعر والأظفار] فإنها إذا كان مما يطول ويكثر حتى
 يحتاج إلى تحفيقه أولاً فوُلأ جعلنا عديمي الحس لكيلا يؤلم الإنسان الأخذ منها ولو
 كان قص الشعر وتقليم الأظفار مما يوحد له حس وألم كان الإنسان من ذلك سجين
 أمرين كريهين أما أن يدع كل واحد منها يطول حتى يهدغه ويثقل عليه وأما أن
 يحفقه بوحس وألم ياله منه. لو بيت الشعر في العين ألم يكن يبعث البصر ولو بيت
 في القدم ألم يكن يبعث على الإنسان طعمه وشرايه ولو بيت في باطن الكف ألم
 يكن يبعثه عن صحة اللمس وبعض الأعمال التي تعمل بالراحة كالمصافحة

وشبهها. ولو بيت على فرح المرأة وعن خوف الرجل ألم يكن سيفسد على الإنسان
لذة الجماع فانظر كيف تنكب بالشعر هذه المواضع لما في ذلك من المصلحة وأنت
في المواضع التي هو لها زين. ثم ليس هذا في الإنسان فقط بل هو في البهيمة أيضاً
فإنك ترى هذه المواضع خالية من هذا السبب بعينه. ألا ترى الحلقة كيف تتخلل
وسمها الخطأ والمضرة وتقع بوجوه الصواب والمنفعة إن المتأنيب وأنسابهم حين
اجتهدوا في عيب الحلقة غابو الشعر الثالث في الركب والأظنين والفخذ والعانة
وأما يكون هذا من الرطوبة تدفعها الطبيعة إلى هذه المواضع فبيت فيها الشعر كما
بيت العشب في مستنقع الماء أو لا ترى أن هذه المواضع أسر وأهيا لقبول لقبول
تلك الفضلة من غيرها.

ثم إن هذا يعد حمل الإنسان من مؤنة هذا البدن وتكاليفه لما في ذلك من
المصلحة فإن اعتنائه بتنظيف بدنه وكسح ما يعلوه من الشعر والدرن مما يكسر
شعره ويكف عاقبته وشغله عن بعض ما يفرحه إليه الفراغ والبطالة.

[فكر في الريق] والمنفعة فيه فإنه جعل يجري دائماً إلى الفم ليل الحلق
واللهوات فلا يجمف فإن هذه المواضع لو جفت كان في ذلك هلاك الإنسان ثم كان
لا يستطيع أن يسبح طامعاً إذا لم يكن في الفم ملة تنفذه يشهد بذلك قول أبقراط
الرطوبة مطية الغذاء وقد يجري مثل هذه اليلة إلى مواضع أحر من الرمة فيكون في
ذلك رجاء فعل من الأفعال الطبيعية.

[أعلمت ما في الأطفال من المنفعة في البكاء] فإن من قول الأطباء أن في
أدمغتهم رطوبة إن بقيت فيها أحدثت عليهم أحياناً جليئة وإن البكاء يسيل تلك
الرطوبة من رؤوسهم فيعشهم ذلك الصحة في أديانهم أفليس قد جاز أن يكون
الطفل ينتفع بالبكاء وأنت لا تعرف ذلك فهكذا يجوز أن يكون في كثير من الأشياء
منافع لا تعرفها فلا تقصر على الشيء أنه لا منفعة فيه من قبل أنك لا تعرفها فإن
كثيراً مما لا تعرفه أنت يعرفه غيرك وكثيراً مما يقصر عنه علم المخلوق يحيط به علم
الخالق سبحانه.

طاش الوهم طيشة فقال لو كان بطن الإنسان مشققاً مثل القسا لفتحته

يطلب إذا شاء فبعض من عرض من ذاء فيه ويدخل فيه فيعالج ما أراد إصلاحه منه ألم يكن أصلح من أن يكون مصعباً محجوباً عن البصر واليد لا الطبيب يعرف ما يعرض فيه إلا بدلالات غامضة كمثل اللون والمخضبة وما أشبه ذلك مما يكثر فيه لعط والشبهة حتى يكون مسألاً لموت، فيصل له لو هب، هكذا كان أول ما فيه أنه كان يسقط على الإنسان الوجع من الأمراض وانتظار الموت فيستشعر الطفاء والسلامة فيمرجه ذلك إلى العنق والأشعر وقسوة القلب كما ذكرنا مراراً. ثم كانت الرطوبات التي في البطن سترشح وتخلط فيفسد على الإنسان مقعده ومرفقه وثباته فيصطنع وورثته من كان يصد عليه عيشه. ثم إن لمعدة والكبد والغذاء إنما ينعش أفعاف بالحرارة الطبيعية المحسنة في الحفوف فلو كان في البطن مروح تفتح حتى تصل العين إلى رؤيته واليد إلى علاجه لوصل مرد الهواء إلى حروف فاحت حرارة الطبيعة ويطلق عمل الأحشاء وكان في ذلك هلاكه.

أفلا نرى أن كل ما تذهب إليه الأوهام سوي ما جاءت به الخلقه حياء وحفل (فكر في هذه الأفعال الطبيعية) التي جمعت في الإنسان تحمض من الطعام واليوم والاصداع^{١٠١} وما در فيها فإنه قد جعل لكل واحد منها في الطباع ليمسه بحرك يختصه ويستحث به فالحوم يعضي الطعام الذي به حياة البدن وهوامه والكبرى يعضي اليوم الذي هو راحة البدن وحوم قواه والشق يقتضي الجماع الذي يكون به دوم السبل والمفاوز. فلو كان الإنسان إنما يعضي إلى أكل الطعام لمعرفته بحاجة منه إليه ولم يجد من مضاعه شيئاً يحضره لذلك كان حليفاً أن يتراى عنه أحياناً لتشفل أو تسبل حتى يحل مدته فيهلك كي قد محتاج المرء إلى الدواء والعلاج أو شيء مما يصبغ مدته فيدفع به حتى يؤديه ذلك إلى المرض أو الموت. وكذلك لو كان إنما يعضي إلى نوم الفكر في حاجته إلى راحة البدن واجسام قواه كان عسى أن يتشافل عن ذلك ويدفعه حتى يهلك مدته. ولو كان إنما يتحرك للجماع بالراحة في الولد

^{١٠١} «اصداع» وهو مرض في الصدر عرجه وهي في كتاب الحكمة في الحلووت نمرال هكذا في مراقي المعرف من حل عند الإنسان من لأحتاج إلى طعام واليوم والاصداع وهي طاعنة أهد

كان غير بعيد من أن يفتر عنه حتى يفل السسل أو يقطع فيان من الناس من لا يرغب في الولد ولا يحفل به.

فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأعمال التي بها تقوم الانسان وصلاحه بمحرك من نفس الطبيعة يحركه له ويحدوه عليه.

وقد وصفت الأطباء في كتب الطب القوي الأربع التي في البدن وأعمالها فالجاذية هي التي تتولى قبض الغذاء وإيراده على المعدة. والمسكة هي التي تحبس الطعام ريثما يفعل الطعام فيه فعله. والمخاضة هي التي تطبخه وتستخرج صغوه وتثبه في البدن. والدافعة هي التي تحدد الفضل الفاصل بعد أخذ المخاضة منه حاجتها. ففكر في تقدير هذه القوى للحاجة إليها والأرب فيها وما في ذلك من التدبير والحكمة فلولوا القوة الجاذية ثم كان الانسان يتحرك لطلب الغذاء الذي به تقوم البدن. ولولا المسكة كيف كان الطعام يلبث في الحروف حتى تهضم المعدة ولولا المخاضة كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصغور الذي يقدر به البدن ويسد خلله. ولولا الدافعة بم كان الفضل الذي تخلفه المخاضة يدفع ويخرج منه أولاً فأولاً.

أنلا نرى كيف وكلت هذه القوى بالبدن والقيام بما فيه صلاحه فصار البدن بمنزلة دار للملك فيها له حشم وقوام موكلون بالدار فواحد لاقتضاء حوايج الحشم وإيرادها عليهم وآخر لقبض ما يرد وتخزينه إلى أن يعالج ويهيأ وآخر لمعالجة ذلك ولتهيئة وتخزينه في الحشم وآخر لكسح ما في الدار من الأقدار والأقذار وإخراجه منها.

فالملت في هذا المثل هو الحلاق العليم مالك العليين والدار هي البدن والحشم وهي الأعضاء والقوام هم هذه القوى الأربع ولعلك ترى ذكرنا لهذه القوى وأعمالها بعد الذي وصف في ذلك من كتب الطب فضلاً في القول وترديداً لأمر معروف وليس ذكرنا لهذه القوى على الجهة التي ذكرت في كتب الطب ولا مذهبا فيه ذلك المذهب لأن ذكرها هناك على ما يحتاج إليه في صناعة الطب ونصحيح الأبدن وذكرها هنا على ما يحتاج إليه في صلاح الدين وشفاء النفوس

وتصحح يدس شالدي لأوصفت بالوصف شاق والمثل المصروب من التعبير والحكمة بها.

نأس هذه العوى التي في النص وموقعها من الأسان أعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وسائر ذلك أترأيت لو نقص الأسان من هذه الخلال الحفظ وحده كيف كانت تكون حاله وكم من غلط كان سيدخل عليه في أموره إذا لم يكن يحفظ الله وما عليه وما أعاد وما أعطى وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحس إليه ومن أساء إليه وما نفعه وما ضره ثم كان لا يبتدي لطريق ولو سلكه مراراً لا يحصى ولا يعقل علماً لو درسه عمره ولا يتفقد شجرة ولا يستطيع أن يعبر شيئاً على ما مضى بل كان حليفاً أن يسلك من الأسية إلى الشهية

(انظر إلى النعمة على الأسان) كيف موقع الوحدة منها دون الجميع وأعجب من هذه النعمة على الأسان في الحفظ لنعمة عليه في السيان طراه لولاه ما سلا أحد من مصيبة ولا نصبت له حسرة ولا مات له حقد ولا استمتع شيء من متاع الدنيا مع تذكر الأهات ولا رجا عملة من سلطان ولا فترة من حارس أفلا ترى كيف جعل في لأسان الحفظ والسيان هما مختلفان متضادان وجعل له في كل واحد منها ضرر من المصلحة وما عسى أن يقول الذين فسموا الأشياء بين مخالفين متضادين وجعل له في هذه الأشياء المتضادة التي تراها تجتمع على ما فيه الصلاح والنعمة فكر في هذا الملق الذي حصى به الأسان دون جميع الحيوان أعني الحياء ما أكثر قدره وأعظم غناه فلولا الحياء لم يفر الضيف ولم يوف بالعדות ولم تنقص الحيوانات ولم سحر الحميل ولم يتكلم الصبح في شيء من الأشياء حتى أن كثيراً من الأمور المفترسة أيضاً إنما تفعل للحياء فإن من الناس من لولا الحياء لم يبرح حتى وادسه ولم يؤذ أمانة ولم يعف عن فاحشة. أفلا ترى كيف وفي الأسان جميع الخلال التي فيها صلاحه ورجاء أموره.

فكر فيما ألهم الله تعالى به عن الإنسان في هذا المطلق الذي يعبر به عما و صميره وبهم عن غيره ما في نفسه ولولا ذلك كان يمر له الشهية التي لا تحبر عن نفسها شيء ولا تفهم عن بحر شيئاً وكذلك الكتاب الذي به تغيد أخبار الماضين

الباقين وأنخبار الباقين ثلاثين، وبه تجلّد الكتب والعلوم والأدب، وبه يعلّق الناس ذكر ما يجري بينهم من الحساب والمعاملات، فلو لا الكتاب انقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست العلوم وضاعت الأدب وعظم ما يدخل على الناس من الخلل في أمورهم والمعاملات التي تجري بينهم واختل نظام العالم.

ولعلك أن تقول أن الكتاب مما يختص الناس إليه بالحيلة والعملة وليس مما أعطيه الإنسان في خلقه وطباعه وكذلك الكلام إنما هو شيء يصطّلع عليه الناس ليجري بينهم فلذلك ما صاروا يختلفان في الأمم المختلفة فليس هؤلاء غير لسان أولئك وكتاب أولئك غير كتاب هؤلاء والأمور الطبيعية ليس بين الناس فيها اختلاف. فنقول في جواب ذلك أنه وإن كان للسان في الأمور جميعاً فعل وحيلة فإن الشيء الذي يبلغ ذلك العمل والحيلة عطية وهبة من الله تعالى في خلقه فإنه لو لم يكن لسان مهيب، للكلام وذهن يبتدي به للأمور لم يكن ليحكم أهدأ. ولو لم يكن له كف وأصابع مهابة للكتاب لم يكن ليكتب أهدأ واعتبر ذلك من الهامم التي لا كلام لها ولا كتاب.

(فكر فيما أعطى الإنسان علمه) وما مع ما فإنه أعطى جميع ما فيه صلاح دينه ودنياه وما فيه صلاح دينه معرفة الخالق بالدلائل والشواهد القائمة في الخلق ومعرفة الواجب عليه من العدل على الناس وبر الوالدين وإداء الأمانة وصيانة أهل الخلّة وأشياء ذلك مما قد توجد معرفته والإقرار به في الطبع والفطرة في كل أمة. وكذلك أعطى الإنسان علم ما فيه صلاح دينه كالتزراعة والغراسة واقتناء الأغنام والأنعام واستنساخ المياه ومعرفة العقاقير التي يستشفي بها من ضرور الأسقام والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر وركوب السفن والعوص في البحر وضرور الخيل في صيد الوحوش والطير والسمك والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب وغير ذلك مما فيه صلاح أمر عياله في هذه الدنيا فأعطى كل ما وصفناه من علم ما يصلح به دينه ودنياه ومع ما سوى ذلك مما ليس من شأنه ولا في طبعه أن يعلمه كعلم الغيب وما هو كائن وبعض ما قد كان أيضاً كعلم ما فوق السحاب وما تحت الأرض وفي لجج البحار وأقطار العالم وما في قلوب

الناس وما في الأرحام وأشياء ذلك في حجب عن الناس علمه فإنه وإن كان الناس ادعوا علم هذه الأمور فقد تبطل دعواهم في يتبين من حفظهم فيما يقصرون عليه ويدعون علمه فانظر كيف أعطى الإنسان علم جميع ما يحتاج إليه دينه ودينه وحبب عنه ما سوى ذلك ليعرف قدره ونقصه وكلا الأمرين لما فيه صلاحه .

(وحي سنن علي ، الإنسان علمه مدة حياته) فإنه لو عرف مقدار عمره وكان مقصراً لم ينهي بالعيش مع ترقب الموت بل كان بمنزلة من قد فني مثاله أو قُرب له ، فقد استشعر الفقر والوحل منه على أن الذي يدخل على الإنسان من هذه العلم أكثر مما يدخله من فناء المال لأن من فقد ماله يؤمن أن يستحصل عليه منه فيسكن إلى ذلك ومن أيقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس . وإن كان طويلاً نعم عرف ذلك ووثق بالبقاء فاهلك في اللذات والمعاصي وعمل على أنه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب في حر عمره وهذا مذهب لا يرضه الله سبحانه من العبادة ولا يقبله إلا ترى أن العبد لو عمل على أن يسقط مولاه سنة ويرضيه يوم أو شهراً لم يضل ذلك منه ولم يجل عيبك محل لعبد الصالح دون أن يصير طاعته وتصلحك في كل الأوقات وعلى كل الحالات .

إن قلت أو ليس قد يفهم الإنسان عن المعصية حيناً ثم يتوب فيقبل ذلك منه فلما أن ذلك شيء ، يكون من الإنسان بغلة له من الشهوات ونزوة عنها من غير أن يمدد في نفسه ويبني أمره عليه فيصيح الله عنه ويتصل عليه بالمعصية فيضعف حزمه فلما من قدره أمره على أن يعصى الله تعالى ما بداله ثم يتوب في تخر ذلك فإنما يحاول خديعة من لا يحذر بأن ينسب التلذذ في العاجل ويعد بالتوبة في الآجل لعنه لا يهي بما يعد من ذلك من الخروج عن الشريعة والتلذذ آيس من معاناة التوبة ولا سيما عند الكبر وضعف البدن فإنه أمر صعب فكأن لا يؤمن عن الإنسان أن يدافع التوبة حتى يرهقه الموت (أو يعوقه عائق) فيخرج من الدنيا غير نائب كما قد يكون عن المرء ، دين إلى آجل وهو يقدر على فضائه ولا يزال يدافع حتى على الآجل وقد تعد المال فيبقي الدين قائماً عليه فكأن حيز الأشياء للإنسان أن ستر عنه مبلغ عمره فيكون طول عمره بترقب الموت فينكسر عن المعاصي ويؤثر

العمل الصالح .

إن قلت فما هو إلا وقد ستر عنه مقدار حياته وصار يقرب الموت كل ساعة يقارب الفواحش ويستهلك المحارم قل إن وجه التدبير في هذا الباب هو الذي حرى عليه الأمر فيه فإن كان الإنسان مع هذا لا يرعوى ولا يصرف عن السوء إنما ذلك من مرحه وقساوة قلبه لا من حبط التدبير كما أن الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به فإن كان المريض مخالفاً للطبيب لا يعمل بما يأمره ولا ينتهي عما ينهاه عنه فم ينتفع بصفته لم تكن الأمانة في ذلك للطبيب بل للمريض حين لم يسل ذلك منه . ولئن كان الإنسان مع ترقبه الموت كل ساعة لا يمنع من المعاصي فإنه لو وثق بطول الطاء كان أحقر أن يخرج إلى الكثرة القطيعة فترقب الموت على كل حال خير من الثقة بالطاء .

ثم إن ترقب الموت وإن كان صنف من الناس ينهون عنه ولا يتمتعون به فقد ينتفع به صنف آخر من الناس فيسرعون عن المعاصي ويؤثرون العمل الصالح ويمجدون الأموال والعقد العيبة في الصدقة على الفقراء ونسائكين فم يكن من العدل أن يحرم هؤلاء من الانتفاع بهذه الخلة لتضييع أولئك حطهم بها

(فكر في الأحكام كيف دمر أمرها) فخرج صادقها يكادها فإب لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم أسياء ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها سمعة بل كانت فضلاً لا معنى فما فصدت تصدق أحياناً لينتفع بهذا الناس في مصلحة يتندي بها أو مضرة يتحرز منها وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد

فكر في هذه الأشياء التي تراها موحودة معدة في العالم من أرب الإنسان والتراب للبناء والحديد للصناعات والخشب للسفن والحجارة للأرحاء والنحاس للأواني والفضة للمعاملة والحواجر للذبح والحبوب للمقذات والثمار لتسكته واللحوم للمأكلة والصبور للتلدن والأدوية للتصحيح والدواب للحمولة والحطب للوقود والرماد للكلس والزلزل للأرض وكلهم عسى أن يهوى المحصي من هذا وشبهه .

أفرايت ثم أن رجلاً دخل داراً فطر إلى خزانة مملوءة من كل ما يحتاج إليه

الشمس ورأى كل ما فيها مجموعة معدة للانسان معروفة اكان يتوهم أن هذا يكون بالإهمال من غير عمد فكيف يستجيز قاتل أن يقول هذا في العالم ون أعد فيه من الأشياء .

فكر في أشياء خلقت لمازب الانسان وما فيها من التدبير فإنه خلق الحب الطعام وكلف طعمه وعينه وخبره وخلق له القطن والوبر لكتونه وكلف سندهه وعمره وسجده وخلق له الشجر لقواكه وكلف عرسه وسقيه والعيم عليه وخلقته بمعايير لأدوية وكلف لقطها وخلطها وصنعها وكذلك لجند الأشياء على هذا المثال فانظر كيف كفى الخلقة التي لم تكن عنده فيها حيلة وترك عليه في كل شيء من الأشياء موضع الحركة لما له في ذلك من الصلاح لأنه لو كفى هذا كله حتى لا يكون له في الأشياء موضع شغل وعمل لما حمته الأرض اشر وبطر وأبلغ ذلك كله به إلى أن يتعاضى أمور فيها تلف بمسه ولو كفى الناس كل ما يحتاجون لما تسو بالعيش ولا وحدوا له نذة الا ترى ان امراً لو نزل يقوم فأقام حتى يكفى جميع ما يحتاج إليه من مطعم ومشرب وخدمة ترم بالفرع وتزاعته بمسه إلى تشاغل بشيء فكيف لو كان طول عمره يكفى لا يحتاج إلى شيء . فكان من صوب التدبير في هذه الأشياء التي خلقت للانسان أن يجعل له فيها موضع شغل لكيلا ينظره البعداة ولكنه الشغل من تعاطي ما لا ياله ولا خير له فيه أن ياله . قال ابن سيرا في حكمته رأس معاش الانسان الخير والماء . وهذا كما قال ولكن أنظر كيف دمر الأمر فيها فإن حاجة الانسان إلى الماء أشد من حاجته إلى الخير وذلك أن صبره على الجوع أكثر من صبره على العطش والذي يحتاج إليه من الماء أكثر مما يحتاج إليه من الخير فإنه يحتاج إلى الماء لشربه ووضوه وغسل ثيابه وأرنبه وسقى ألبامه وروحه فحعمل الماء مسدولاً لا يشتري شمن لتسقط عن الانسان المؤنة في طلبه وتكفه وحعمل الخير مفقداً لا يمان إلا بالهيلة والحركة ليكون للانسان في ذلك شغل يكفه عما يخرجه إليه الفراغ من الأشر والعبث .

أما ترى الصبي يدفع إلى المزدب وهو طفل لما يكامل ذهنه فيعلم ذلك لتشغل عن اللعب والعبث الذي رما حثي عليه وعمل أهله الفكرة العظيمة وهكذا

الإنسان لو خلا من الشغل يخرج من العيث والأثر إلى ما يعظم ضرره عليه وعمل من قرب منه واعتبر ذلك بمن نشأ في جدة ورفاهية العيش وما يجرجه إليه الترفه والكفاية ولو كان الإنسان لا يصيه ألم ولا وجع أكان يرتدع عن الفواحش ويشواضع لله ويعطف على الناس. ألا ترى أنه حين يعرض له وجع تخضع واستكان ورغب إلى ربه في العافية وبسط يده بالصدقة فلو كان لا يألم من الصرب بم كان السطان يعاقب الدعار ويدل العنة المردة ويم كان الصيان يتعلمون العلوم والصناعات ويم كان العبيد يذلون لأربابهم ويدعون لطاعتهم أطيس في هذا توبخ للمعطلة الذين جحدوا التدبير والمالية الذين مقموا الألم والوجع

لو لم يلد من الحيوان إلا ذكور فقط أو أنثى فقط ألم يكن سيفقطع السل وتبدد أحاس الحيوان فلم صار بعض الأولاد يأتي ذكر أو بعضها أنثى إلا ليديم النسل ولا يقطع لو رأيت تمثال إنسان مصور في حائط فقال لك قائل أن هذا ظهر من تلاءم نفسه ها هنا لم يصنعه صانع ألم تكن تستهزئ به فكيف يكر هذا في تمثال كالخيال ولا يكره في الإنسان الحي الماطق. لم صارت أبدان الحيوان وهي تعتدي أبدأ لا تنمو أبدأ بل تنتهي إلى غاية من النمو ثم تنف لولا التدبير في ذلك فإن من التدبير الحكيم فيها أن يكون أبدأ أن كل صف منها على مقدار معلوم غير متصاوت في الكبير والصغير فصار ينمو حتى ينتهي إلى غاياتها ثم يقف والغذاء مع ذلك قائم لا يقطع ولو كانت تنمو نمواً دائماً لعظمت أبدانها واشتهت مقاديرها حتى لا يكون لشيء منها حد معروف. ثم كانت أجسام الأنس خاصة تستقل عن الهشي والحركة وتجنسو عن الصناعات اللطيفة وتعظم الموزنة فيها يحتاج إليه للملبس والمضجع والتكفين فحسم هذا كله بأن جعلت تنمو حتى تنتهي إلى مقاديرها فتقف عندها ولا تعدوها.

لم لا يتشابه الإنسان واحداً بالآخر كما تتشابه الطير والوحش وغير ذلك فإنك ترى السرب من الظباء أو القطا تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر. وترى الناس مختلفة صورهم وحلقهم حتى لا يكاد أثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة. والملة في ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحليتهم لما

يجري بينهم من المعاملات وليس يجري بين الهيم مثل هذا فيجب أن معرفة كل واحد بعينه وحسبه ألا يرى أن المشبه في الطير والوحوش لا يصرها شيء وليس كذلك الإنسان فإنه ربما نشابه الإنسان تشابهاً شديداً فتعظم المؤنة على الناس في معاملتها حتى يعطى أحدهما من الآخر ويؤخذ أحدهما من الآخر وقد يحدث مثل هذا في تشبه الأسماء فصلا عن تشابه الصور فمن لطيف هذه الدقائق التي لا تكاد تحظر بالذات حتى وقف بها على الصواب إلا من وسعت حكمته كل شيء . م
صار الرجل وامرأة إذا أدركا جميعاً ست لها العدة ثم ثبت لمرجل النحية وتختلف عن المرأة لولا التدبير في ذلك فإنه دمر أن يكون الرجل قبيحاً ورفيهاً على المرأة وتكون المرأة عرساً دحولا له

أعطى الرجل سحبة لما له فيها من العمر والحلاوة وعينه وصعدت المرأة نبطاً فيها نصاره . وجه والهجاء التي تشاكل المتأكله والمناصعة . أولاً ترى الحليفة كيف يتم لها الصواب في الأشياء فتعطي وتلمع عن حسب الأرب والمصلحة

وصف الحكماء بأن الطبيعة لا تعمل شيئاً لغير معنى ولا تقتصر عما فيه عدم الشيء في سمته والمنحة تشهد له بذلك فمن أعطى الطبيعة هذه الحكمة والوقوف عن حدود الأشياء فلا يحاوره لها ولا تقتصر عنها وهذا ما قد تعجب عنه العقول بعد طوبى المتحير . فإن أوحش للطبيعة الحكمة والقُدرة عن مثل هذه الأفعال ففكرت عما سبوت لأن هذه هي صفة الخلق وحب أنكرت أن تكون هذه للطبيعة . وجه الحق حيث بأن الفعل للخلاق العظيم الحكيم

وقد كنت من الصفاء طاعة أنكرت العمد والتدبير في الأشياء ورعوى أن كونها بالعرض والاتفاق كمثل دياغوروس وفيثوروس وأرس من ضيعين فكان مما احتجوا بها هذه الآيت التي قوله على جرى طبيعة كالإنسان الذي يولد باعصب يداً أو رائد اصعباً أو يولد مشوهةً مندل الخلق فحالوا بهذا دليل على أن كون الإنسان ليس من تعمد ولا تقدير بل لعرض وكيف اتفق أن يكون فرد عصبه أرسطاطاليس وغيره من الفلاسفة فقالوا أن الذي يكون بالعرض والاتفاق إنما هو شيء يأتي في العرض مرة لإعراض تعرض للطبيعة فتزيلها عن مسيلها وليس عمره

الأمور الطبيعية الجارية على شكل واحد جرياناً دائماً متتابعاً ونحن نرى أخصاف الحيوان تجري على أكثر ذلك على مثال ومنهاج واحد كالإنسان يولد وله يدران ورجلان وخمس أصابع وغير ذلك مما عليه الجمهور من الناس . فأما ما يولد وله يدران ورجلان وخمس أصابع وغير ذلك مما عليه الجمهور من الناس . فأما ما يولد على خلاف ذلك فإنما هو لمعة تكون في الرحم أو في المادة التي منها يشق الجنين كما قد يعرض في الصناعات حتى تعتمد الصانع الصواب في صمته فيعوق دون ذلك عائق من العصاد في الأداة أو في الآلة التي يعمل بها الشيء . وقد يحدث مثل ذلك في أولاد الحيوان للأسباب التي وصفنا فيأتي الولد ناقصاً لورائد أو مشوهاً ويسلم أكثرها فيأتي سوياً لا علة فيه فكيف أنه يحدث على بعض أعدل الصانع لأعراض تعرض فيه ولا يجوز عليها أجمع الإهمان وعدم المصعة . كذلك ما يحدث على بعض الأفعال الطبيعية العائقة يمدخل عليه لا يوجب على جميعها أن يكون بالعرض والانفلاق . ونقول القائل في الأشياء إن كونها بالعرض والانفلاق من قبل أن شيئاً منها يأتي على خلاف الطبيعة حتى لعرض يعرض له خطأ وحيل

فإن قلت ولم صار هذا الحدث في الأشياء قلت أنه ليس كون الأشياء أيضاً باضطراب من الطبيعة حتى لا يمكن أن يكون سواء كما قال القائلون بل هو متغير وحمد من الخالق إذ جعل الطبيعة تجري أكثر ذلك على مجرى مباح معروف وتزول أحياناً عن ذلك لأعراض تعرض لها فيستدل بذلك على أنها مصروفة مغيرة فقيرة إلى إرادة الخالق وتقدرته في بلوغ غايتها وإتمام عملها

إنخذ أماس هذه الآفات الحادثة في بعض الأزمان كمثل الربا واليرقان والبرد والجوار ذريعة إلى جحود الخالق والتقدير . فيقال في جواب ذلك أنه إن لم يكن خالق مدير فلم لا يكون أكثر من هذا وأقطع من ذلك أن تقع السماء على الأرض وتبوى الأرض فتذهب سفلاً وتتخلف الشمس عن الطلوع أصلاً وتخف الأنهار والعيون حتى لا يوجد ماء ليشفه وتركد الرياح حتى تختمر الأشياء وتفسد ويفيض ماء البحر على الأرض فيغرقها وهذه الآفات التي ذكروا من الربا والجوار وما أشبه ذلك ما بالها لا ندوم وتمتد حتى تحتاج كل ما في العالم بل تحدث في الأحيان ثم لا

ثلث أن ترفع أولا ترى أن العالم بضان ويحفظ من تلك الألفاظ الجلييلة التي إن حدث شيء عليه منها كان فيه بؤره ويلدغ أحيانا بهذه الألفاظ البسيرة لتأديب الناس وتوقوهم ثم لا تترك هذه الألفاظ أن تقوم بلى تكشف عنهم عند القسوط منهم فيكون ولموعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة.

قد نكر العطلة أيضاً ما أنكرت المسانية من المكروه والمصائب التي تصيب الناس فكلاهما يقول أن كان للعالم حلاق رؤوف رحيم فلم تحدث فيه هذه الأمور المكروهة والقاتل بهذا القول يذهب إلى أنه ينبغي أن يكون عيش الإنسان في هذه الدنيا صافياً من كل كدر ولو كان هذا هكذا لقد كان الإنسان سيخرج من الأشر والعثر إلى ما يصلح له معه دين ولا دنيا كالفني ترى كثيراً من الأمراء المترفين ومن يشا في الجدة والأمن يرحون حتى أن أحدهم بنى نفسه أنه بشر مريبوب وأن صبره بمسه أو مكروهه يتزل به وأنه يجب عليه أن يرحم ضعيفاً لو يواسي فقيراً أو يرني لمنلي لو يتعطف على مكروب. فإذا عضته المكروه ووجد مضضها انعط وأبصر كثيراً مما قد كان غافلاً عنه ورجع إلى كثير مما كان يجب عليه. والمتكبرون هذه الأمور المؤدية بمزلة الصبيان الذين يلعبون الأدوية المرة البشعة ويتخطون النع من الأطعمة الضارة ويتكبرون الأدب والعمل ويحبون أن يفرغوا للهو والبطالة ويأخروا كل مطعم ومشرب ولا يعرفون ما تؤذيهم إليه البطالة من سوء الشؤ والبسرة والعادة وما تعقهم الأطعمة الضارة من الأدواء والأسقام وما لهم في الأدب من الصلاح وفي الأدوية البشعة من البفعة وإن شاب ذلك بعض الكراهة. فلو قالوا ولم لم يكن الإنسان معصوماً حتى لا يحتاج إلى تليغه بهذه المكروه قلنا إذا كان يكون غير محمود على حسنة يأنها ولا يستحق للثواب عليها. فإن قالوا وما كان بصره ألا يكون محموداً على الحسات مستحقاً للثواب بعد أن يصير إلى غاية النعم واللذة قلت أعرضوا على امرئ صحيح الجسم والعقل أن يجلس متعباً ويكفي كل ما يجامح إليه بلا سعي واستحقاق فانظروا هل تقبل نفسه ذلك بين مستجوده بالفضل عما ياله بالسعي والحركة أشد سروراً واغتياطاً منه بالكثير مما يناله بلا استحقاق. وكذلك معمم الأخيرة إما يكون لأهله بأن يتلوه بالسعي والاستحقاق له

والنعمه على الانسان مصداقه بان في هذا الباب أعدله الثواب الحريق على سعيه في هذه الدنيا وجعل له السبل إلى أن يال ذلك سعي واستحقاق فيكمل له السرور والاحتياط بما يناله .

فإن قالوا لو ليس قد يكون من الناس من يركز إلى ما نال من خير ولو كان لا يستحقه فما الحجة في مع ذلك من رضي أن يال نعم الأخرى على هذه الحجة (قلنا) إن هذا باب لو فتح للناس لخرجوا إلى غاية الكلب والصرابة على المواحسن وانتهاك المحارم فمن كان يكف نفسه عن فاحشة أو يتحمل المشقة في باب من أبواب البر لو وثق أنه صائر إلى النعيم لا محالة أو من كان يأس على نفسه وأنه وماله لو أسى الناس وحسب والعقاب فكان ضرر هذا الباب سيئات الناس في هذه الدنيا قبل الأخرى ثم كان يستوي الأثر والعجز في الدنيا والأخرى فيكون في ذلك تعطيلاً للعدل والحكمة معاً وموصفاً للضعف على التدبير بخلاف الصواب وموضع الأمور في غير مواضعها

وقد يتعلل هؤلاء بالأفان التي تصيب الناس نعم البر والفاخر بقصة وبسبب البر ويسلم منها ليعجز فيقولون كيف يجوز هذا في تدبير من الحكيم وما أحسن في ذلك فقول في جواب ذلك أن الآيات وإن كانت نال الصالح والطالح جميعاً فلا تغير من الله تعالى يجعل في ذلك صلاحاً للضعفين كليهما أما الصالحون فلأن يهدي لهم من هذا يذكرهم نعم ربهم عدهم في سالف أيامهم فيجدهم ذلك على الشكر والصبر وأما لطلخون فإن مثل هذا إذا ما لم كسر شرهم وورعهم عن المعاصي وعن المواحسن وكذلك يجعل لمن سلم منها من الضعفين صلاحاً في ذلك .

أما الأثر فإنهم يعتبطون بما هم عليه من البر والصلاح وأما العجز فإنهم عجزون رحمة ربهم وتقولون عليهم بالسلامة من غير استحقاق فيحصبهم ذلك على لرافة بالناس والصفح عن أسياء إليهم .

ولعلك تقول أتترك هذا في الآفات التي تصيب الناس في أموالهم أرايت ما تنزلون به في أديانهم فيكون فيه تلغيم كمثل الحريق والسيل والجفاف ما الحجة في

ذلك فنقول أن الله تعالى يعمل في هذا أيضاً صلاحاً للتصفيين جميعاً أما الأمر
فقد علم في معرفة هذه الدر من الرحة من تكاليفها والسجدة من مكارمها. وأما
العمار فلما هم في ذلك من تحييص أوزارهم وحسبهم عن الأديان بها

وحلة القول أن الخائف تعالى يصرف هذه الأمور كلها إلى الخير والمصلحة فكم
به إذا قلعت تربع شجرة أو قصفت نحلة أخذها الصانع الرقيق فاستعملها إلى
صروب النافع كذلك يفعل المدر الحكيم في الأمان التي تزل بالناس في أديانهم
وأموالهم فيصرفها أجمع إلى الخير والمصلحة.

فإن قلت ولم يحدث على الناس مثل هذه الأحداث فلما لكيلاً يركضون
طول السلامة فيعملوا الصالح في الزكوة إلى المعاصي ويفتر الصالح عن الاحتياط في
النم فإن هذين الأمرين جميعاً يخلجان على الناس في حال الخلق والدعة وهذه
الحوادث التي تحدث عليهم تدفعهم وتسهبهم عن ما فيه رشدهم ولو حلوا بها لعمرو
في الطغيان والمصلحة كما علوا في أول الزمان حتى وجب عليهم السور بالطوفان
وتطهير الأرض منهم.

ومما يقبه الجاحدون للتدبير في الموت ولقاء قاهم يذهبون إلى أنه ينبغي أن
يكون الناس مخلدين في هذه الدنيا مرتين من الأمان فقد يسمي أن سوف هذه
القول إلى عيته فتنظر ما محصوله أفرايت لو كان كل رجل دخل العلم وسدحه
يقولون فلا يموت أحد منهم ألم تكن الأرض متضيق بهم حتى تصورهم المسك
و البرقع والمعاش ألهي لو كانوا لا يعنيهم أولاً فاولاً يتنافسون في السد
والمعاش وحتى تشب بهم في ذلك الحروب وتنسك فيه الدعاء وكيف تكون
حالتهم لو كانوا يولدون ولا يموتون. هذا إلى ما كان سيقلب عليهم من الحرص
والشره والفساد العلوب فإهم لو وثقوا بأنهم لا يموتون لم تبق أحد شيء ياله ولا
يمرح أحد عن شيء يبيله ولا يفرح عن شيء يبيله. ولا يسلون عن شيء يموت
عليهم ثم كانوا يملون الحياة وكل شيء من أمور الدنيا كما قد يمل الحياة من حال
عمره حتى يتقن الموت والراحة من الدنيا

فإن قلت أنه قد يسمي أن ترفع عنهم المضار والأوصال حتى لا يتعبوا

الموت فلا يتوفوا إليه فقد وصفا ما كان هذا مخرجهم إليه من العتو والاشر الحاصل لهم على ما فيه فساد الدين والدنيا .

فإن قالوا أنه كان ينبغي أن لا يتوالدوا كي لا يضيق عليهم المساكن والمعاش قلنا إذا كانوا يحرم أكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله ومناجاة في الدارين جميعاً إذا لم يدخل العالم إلا قرن واحد لا يتناسلون ولا يتوالدون . وإن قالوا كان يخلق في ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق إلى انقضاء العلم رجع الأمر إلى ما ذكرنا من صيق المساكن والمعاش عنهم ثم لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون ذهب موضع الانسان باقرانات ودوي الأرحام والانتصار بهم عند الشدائد وموضع نرية الأولاد والسرور بهم في هذا دليل على أن ما تذهب إليه الأوهام سوى ما جرى به التدبير حفظاً وسعاًل من الرأي والقول وليس طاعاً يطعن على التدبير من جهة أخرى فيقول كيف يكون ههما تدمير ومحى يرى الناس في هذه الدنيا من عجز وضعف والقوى بطعم وبعض الضعيف يُظلم ويسم الحسيف والصالح فقير مثل والفسق معالي موسع عليه من ركب فاحشة وانتهك محرماً لم يعاجل بالعقوبة ولو كان في هذا تعاليم تدبير لحوت الأمور على القياس القائم وكان الصالح هو المرووف والصالح هو المحروم وكان القوى ينع من ظلم الضعيف واستهك للمحروم يعاجل فيقول في جواب ذلك إن هذا لو كان هكذا لذهب موضع الاحتيار والتحررة التي فصل بها الانسان وحمل النفس على البر والعمل الصالح احساساً للثواب وثقة بـ وعد الله به والعصر الناس عمرة الدواب التي تناسى بالعصا والعبث ويلمع لها لكل واحد منها سعة فساعة فتستليم عن ذلك ولم يكن أحد يعمل على بقر شواب أو عقاب حتى كان يخرجهم من حد الأسية إلى حد اليهايم التي لا تعرف ما غاب ولا تعمل إلا على الحاصر وكان يحدث منها أيضاً أن يكون الصالح إنما يعمل الصالحات للرزق والسعة في هذه الدنيا ويكون الممتع من الظلم والفواحش إنما يعفو عن ذلك لتقرب عقوبة نازلة تزل به من سعة حتى تكون أفعال الناس كلها تجري على الأمر الحاصر لا يشوبها شيء من اليقين بما وعد الله ولا تستحق ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها مع أن هذه الأمور التي ذكرها الغنا والفقر والعافية واليأس ليست بجارية على أفعال

فما من أدب، بل قد يحري أحيانا على القياس والأمر المجهوم فقد سرى كثيراً من الناس الصالحين يروون المال الصرب من التقدير ولكن لا يسق إلى قلوب الناس أن الصفاق هم المروءون والأمر هم المحرومون فيثرون القسق من الصلاح ويرى كثيراً من الصفاق يعاجلون بالعقوبة إذا تعاقم طعبيهم وعظم ضررهم على الناس وعن أنفسهم كما عرجل فرعون بالعرق ونو إسرائيل بآتيه وبختصر بالقتل وإن سهل بعض الأشتر بالعقوبة وأحر بعض الأخبار بالثواب إلى انداز الآخرة لأسباب يحوي عن العباد لم يكن هذا في يطلع التقدير فإن مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض أيضاً فلا يطلع تدبيرهم بل يكون تأخيرهم ما أحرروا وتعجيلهم ما عجلوا داخل في صواب الرأي والتدبير.

ثم يقول أيضاً أنه كان القياس يوحد والشواهد تشهد بأن للأشياء حقائقاً حكماً قائماً في جمعه أن يدبر خلقه فيه لا يصح في القياس أن يكون الصانع يهمل صغته إلا إحدى خلال ثلاث أن يحجز وإما جهل وإما شرارة وكل هذا محال في صفة الخالق القديم تعالى ذكره وذلك أن العاقل لا يستطيع أن يأتي بمثل هذه الحقائق العجيبة الخبيثة والجاهل لا يتدبر ما فيها من الصواب والحكمة والشرير لا يتطول بحلفها وإشائها

فإذا كان هذا هكذا وحجب أن يكون الخالق لهذه الحقائق يدبرها لا محالة وإن كان لا يدرك فيه ذلك التدبير ومحوريه فإن كثيراً من تدبير الملوك أيضاً لا يفهمه العامة ولا تعرف أسماه لأنه لا يعرف داخله أمر الملوك وأسرارهم فإذا عرف منه وحد صواباً قائماً على القياس والحنة

لو شككت في قوة بعض الأدوية والأطعمة فتبين لك من وجهين أو ثلاثه أنه حار أو بارد ألم تكن تنفسي عليه بذلك وتعي الشك فيه عن نفسك فما بالك لا تنفسي على العالم بالخلق والتدبير مع هذه الشواهد الكثيرة وأكثر من ما لا يحصى كثرة لو كان نصف ما في العالم مشكلاً صوابه لما كان من حرم الرأي وسنة الأدب أن تنفسي عن العالم بالإهمال لأنه لو كان في الصنف الآخر وما يظهر من فيه الصواب والافتقار ما برح الوهم عن التسرع إلى هذه القضية فكيف وكل ما فيه إذا

فنش واحد عن غاية التصويب حتى أنه لا يحظر نال شيء إلا وجد ما عليه الخلقه
أصح وأصوب منه.

أعلنت ما اسم العالم بلندن اليونانية فإن اسمه جاري المعروف باليونانية
قوسموس وتفسير قوسموس الزينة وكان المسمى له بهذا الاسم فيها يزعمون
ليثاغورس الفيلسوف ثم جرى عليه الفلاسفة والناس من بعد.

أنك كل الحكماء والفلاسفة يسمونه بهذا الاسم إلا لما رأوا فيه من التفسير
والنظام مع أنهم لم يرضوا أن يسموه تقديراً ونظماً حتى سموه زينة ليحسروا أنه مع
ما هو عليه من الصواب والاتقان في غاية الحسن والبهاء.

العجب من قوم لا يقضون عن صناعة الطب خطأ وهم يرون الأطباء
يخطئ ويقضون على العالم بالإهمال ولا يرون شيئاً مهيلاً لا شعيب من الخلف
الجاهلي (دوسي) حين جهل موضع الحكمة في الخلق حتى أرسل إليه رسالة له
ولكن تعجب من المحدول (ماني) الذي ادعى أنه أول علم الأمور حيث علم
عن دلائل الحكمة في الخلق حتى سبه إلى خطأ وسب حده إلى الجهل ساراً
وتعالى الحكيم الكريم.

وأعجب من هذين جميعاً اللعنة الذين زعموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك
بالعقل فلما أغورهم ذلك حرجوا إلى الخجود والتكذيب قالوا ولم لا يدرك العقل
قلنا لأنه فوق مرتبة العقل كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته فلو رأيت
حجراً يرتفع في الهواء لعلمت أن راعياً رعى به وكان الذي أراك البصر من ذلك
ذهب الحجر علواً فإن علمك أن راعياً رعى به وكان الذي أراك البصر من ذلك
ذهب الحجر علواً فاعلمك أن راعياً رعى به فليس من قبل البصر بل من قبل
العقل لأن العقل هو الذي يميز فيعلم أن الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه أملاً
تري كيف وقف البصر على حده فلم يتجاوز فكتلك يقف العقل على حده من
معرفة الخالق فلا يعلموه.

قالوا قلنا نعلمه بدأ قلنا بل عقل إقرار وليس عقل إحاطة كما قد يعلم
الإنسان أن فيه نفساً وهو لا يعاينها ولا يدركها بحاسة من الحواس ومن أمثال ذلك

أيضاً المعطاة التي لا جزء لها فإنها تحجب في العقل باضطراب من قبل أنه لا بد من أن يكون بدء الخط من نقطة ولا يمكن أن تظهر للحس لأن النقطة الواقعة تحت الحس متحركة لا محالة. وكذلك يقول أصحاب علم الهندسة أن المثلثة الصحيحة هي التي يوجبها القياس باضطراب وإنما المخطوطية فالخطوط الواقع عليها الحس فلا يخلو من أن يبدلها شيء من الخلل وأن اجتهد بجهت في إنسانتها. وعلى حسب هذا يقول إن العقل يعرف الخالق من جهة العزة والدلالة لا من جهة الحس والاحاطة وبالحملة أنه يعرفه من جهة ما يوجب عليه الإقرار به ولا يعرفه من جهة ما يوجب الاحاطة بصفته.

قالوا فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته والعقل اللطيف لا يحيط به (قلنا) إنما يكلف العباد من ذلك ما في طاعتهم أن يبلغوه وهو أن يوقنوا به ويقضوا عنه أمرهم ولم يكتفوا الاحاطة به وبصفاته كما أن الملك لا يكلف رعيته أن يعلموا طوبىل هو أم قصير وأبيض هو أم أسمر إنما يكتلفهم الأدهان لسلطانه والانتهاى إلى أمره ألا ترى أن رجلاً لو أتى باب ملك فقال أعرض عني نفسك حتى أنتفىص معرفتك وإلا لم أسمع لك كان قد أحل بنفسه العقوبة فهكذا القائل أنه لا يقدر بالخالق حتى يحيط بكنهه متعرض لسخطه.

قالوا أليس قد نصفه فيقول هو العزيز الحكيم الجواد قلنا كل هذا صفات إقرار واعترااف وتثبيت وليست بمصافات إحاطة فإنما تعلم أنه حكيم ولا نحيط بكنه ذلك منه وكذلك قدير وجواد وسائر صفاته كما قد نرى السياه ولا ندري ما جوهرها ونرى البحر ولا ندري أين منتهاه بل هو فوق هذه الأمثال ما لا نهاية له لأن الأمثال كلها تنقص عنه ولكب تقود العقل إلى معرفته.

قالوا فلم تختلف فيه قلنا تنقص الأوهام عن مدى عظمتة وتعديلها إقرارها في طلب معرفته وإنما تروم الاحاطة به وهي تعجز عن ذلك فيما دونه.

فمن ذلك هذه الشمس التي نراها تطلع على العالم كل يوم ولا نقف عن حقيقة أمرها ولذلك كثرت الأقاويل فيها واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها فقال أركسمندوس هي تلك أجوف مملوء ناراً له قم يحيش بهذا الوهج والشعاع

وقال كسيمونيس هو اجتماع أجزاء نارية يدفعها البخار الرطب. وقال اركسمانيس هو سحابة ملتهبة. وقال فيلاغورس الفيلسوف الهلنستي هو جسم زجاجي يبل نارية العالم ويرسل عليها شعاعه وقال الأسطوناقون هو جوهر لطيف يتصعد من البحر وقال أفلاطون هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار وقال أرسطاطاليس هو من جوهر خامس سوى الجوهر الأربعة.

ثم اختلفوا في شكلها أيضاً فقال اركسمانيس هو بمنزلة صفيحة عريضة وقال الأسطوناقون هي كالكرة المدحرجة وقال أرسطاطاليس مثل ذلك

وكذلك اختلفوا في مقدارها فزعم انكسيمندوس إنها مثل الأرض سواء وقال انكسيماتس بل هي أقل من ذلك. وقال ايكساغورس هي اعظم من الأرض العظيمة وقال ارقليطوس هي مقدار قدم الانسان وقال أصحاب الهندسة هي اضعاف مائة وسبعين مرة من الأرض.

ففي اختلاف هذه الأقاويل مهم في الشمس التي يقع عليها البصر ويدركها بحس دليل على أهم لم يقعوا على الحقيقة من أمرها فإذا تاب هذه الشمس التي يقع عليها البصر ويدركها الحس قد عبرت العقول عن الوصف على حتمها منكم فكم فالخبري ما لطف عن الحس واستر عن الوهم

قالوا ولم استر فك انه لم يستر بحيلة لبعض إليها كمن ينجب عن الناس بالأبواب والستور إنما معنى قولنا انه استر انه لطف عن مدى ما يبلغه الأوهام كما لطف النفس وارتفعت عن ارتداعها بالبصر

فإن قلت لم لطف وتعالى كان ذلك خطأ من القول لأنه لا يليق بالذي هو علة كل شيء إلا أن يكون دائماً لكل شيء متعالياً عن كل شيء. قلنا ان الذي نطلب معرفته من الأشياء أربعة أوجه أولها ان ينظر أموجود هو أم ليس موحوداً والثاني أن يعرف ما هو في ذاته وجوهره والثالث أن ينظر كيف هو وما صفته والرابع لماذا ولأية علة فليس في هذه الوجوه شيء يمكن المخلوق ان يعرفه من الخالق حق معرفته بخلاف أنه موحود فقط فإما ما هو وكيف هو فيمتنع عليه كنهه وكمال المعرفة به. وإما لماذا فهو ساقط في صفة الخالق لأنه علة كل شيء وليس شيء بعلة ثم

ليس علم الإنسان بأنه موجود واجب أنه ان يعلم ما هو وكيف هو كما ان علمه بوجود النفس لا يوجب أنه ان يعلم ما هي وكيف هي وكذلك الأمور الروحانية الطبيعية

قالوا أفرطتم فيما تصفون من تصور العلم عنه حتى كأنه غير معلوم قبل ذلك هو من جهة إذا رام العقل معرفة كنهه والاحتاطة به وهو من جهة أخرى أفرط من كل قريب إذا استدلل عليه بالدلائل الشاعبة وقد ذلل الرسطا طاطيس في «حجرات شبيه» هذا القرب في كتابه الذي سماه ما بعد الطبيعة فيناه وخصه بهذه الصفة فقل هو قريب بعد ذاته من جهة كثر صبح لا يحصي على أحد ومن جهة كالعاص لا يدركه أحد فكذلك العقل أيضاً طاهر شواهد ومستتر في ذاته فلا يكر أحد أن يقول في صانعه وبأثره نحو ما قيل فيه.

فهذا منتهى جميع ما في هذا الكتاب من الدلائل على الخلق والتدبير وهو قابل من كثير وحرره من كل فيما اعلم الكتاب بعد الخلاق العلوي الحكيم له الشكر كثيراً دائماً مباركاً فيه تم الكتاب.

قال كتابه في آخره ما نصه

وهذا حين أتينا على آخر كتاب الدلائل والاعتبار تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على رسوله محمد وآله الطيب الطاهرين وكان الفراغ من رقبته في شهر ربيع الآخر سنة ثلثه وعشرين بعد الألف هـ.

فهرس كتاب
الدلائل والاعتبار

فهرس

صفحة

٥	أول العبر بيته هذا العالم وناليف أجزائه
٦	فكر في لون السماء
٦	فكر في طلوع الشمس وغروبها
٧	فكر في تنقل الشمس
٨	فأما سير القمر
٨	تأمل شروق الشمس على العالم
٨	فكر في مقادير الليل والنهار
٩	فكر في إثارة القمر
١٠	فكر في هذه النجوم
	فكر لم صار هذا الفلك بشمسه وقمره
١١	وبروجه يدور على العالم
١٢	فكر في هذا الحر والبرد
١٣	تأمل حكمة الباري في خلق النار
١٤	فكر في خلق هذه الأرض
١٥	انظر إلى هذه الجبال
١٥	فكر في هذه المعادن
١٦	فكر في كثرة ما خلق الله من هذه الجواهر الأربعة
١٨	فكر في نزول المطر
١٩	فكر في هذا النبات
٢٠	في هذا الربيع

٢٠	تأمل نبات هذه الحبوب
٢١	تأمل الحكمة في خلق الشجر
٢٢	فكر في هذا المعجم والنوي
٢٢	فكر في ضروب من التدبير في الشجر
٢٣	فكر في خلق الرماة
٢٣	فكر في حل الينطين
٢٤	فكر في حلة تجدها في النخل
٢٤	فكر في هذه العقاقير
٢٦	فكر في أجسام الأنعام
	فكر في خلفه هذه الأصناف الثلاثة من
٢٦	الحيوان الإنسان وآكلات اللحم
٢٦	وآكلات النبات
	أنظر إلى هذه البهائم كيف كسبت أجسامها
٢٩	هذه الكسوة
٢٩	فكر في خلفه عجيبة جعلت في البهائم الوحشية
٣٠	تأمل وجه الدابة كيف هو
٣١	أنظر إلى مشعر الفيل
٣١	فكر في خلق الزرافة
٣٢	تأمل خلفه الفرد
٣٣	وهل سمعت ما يتحدث به عن التنين
٣٣	فكر في ضروب من الفطن جعلت في البهائم
٣٤	تأمل الذرة الحفيرة
٣٤	أنظر إلى النمل
٣٤	أنظر إلى هذا الذي يقال له الميث
٣٥	فأما العنكبوت
٣٥	تأمل جسم الطائر وحلقته

صفحة	
٣٦	انظر إلى الدجاجة
٣٦	فكر في حوصلة الطائر
٣٨	انظر إلى العصافير
٣٩	انظر إلى النحل
٣٩	انظر إلى هذا الجراد
٤٠	تأمل خلق السمك
٤١	انصرف الآن إلى خلق الإنسان
٤١	فكر الآن في أمر الإنسان
٤٣	فكر في أعضاء البدن
٤٣	فكر في وصول الغذاء إلى البدن
٤٤	تأمل حكمة التدبير في تدبير تركيب البدن
٤٤	انظر إلى هذه الحواس
٤٥	فكر في الذي عدم البصر من الناس
٤٧	فكر في الصوت
٤٨	أما رأيت الدماغ الخ
٥٠	تأمل التدبير في خلق الشعر والأظفار
٥١	فكر في الرين
٥١	أعلمت ما في الأطفال من المنفعة في البكاء
٥٣	فكر في هذه الأفعال الطبيعية التي جعلت في الإنسان
٥٤	فكر فيما أنعم الله تعالى به على الإنسان في هذا الشفق
٥٥	فكر فيما أعطي الإنسان علمه
٥٦	وما ستر على الإنسان علمه مدة حياته
٥٧	فكر في الأحكام كيف دبر أمرها
	قال ابن شبرا في حكمته رأس معاش
٥٨	الإنسان الحيز والماء
٥٩	لم لا يشابه الإنسان واحداً بالأخر

- وفد كانت من القدماء طائفة أنكرت العدد
 والتدبير في الأشياء ٦١
- قد تنكر المعطلة أيضاً ما أنكرت الثانية من
 المكافاة الخ ٦٢
- وحلة القول إن الخالق تعالى يصرف هذه
 الأمور قلها إلى الخير ٦٤
- ومما يتقنه الجاحدون للتدبير في الموت والقضاء ٦٤
- كان القياس يوجد والشواهد تشهد أن
 للأشياء خالقاً حكماً ٦٦
- أعلنت ما اسم العالم بلسان اليونانية فاسمه
 جاري المعروف باليونانية فوسموس ٦٧
- واعجب من هذين جميعاً المعطلة الذين راموا
 أن يدركوا بالحس مالا يدرك بالعقل ٦٧
- قالوا فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته ٦٨
- قالوا فلم نختلف فيه ٦٨
- فمن ذلك هذه الشمس التي تراها تطلع
 على العباد ٦٨
- ولم استبر قلنا الخ ٦٩
- قالوا أفرطتم فيما تصفون من قصور العلم عنه ٧٠